ابو الأعلى المودودي

موجز تاريخ

تجديد الدين وإحيائه

و

واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

مؤسسة الرسالة

الطبعة الرابعة

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٢٩٥٥٠١ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيه أجمعين . وبعد ،

فهذه المجموعة التي نتشرف اليوم بتقديمها الى اخواننا العرب ، مشتملة على رسالتين للاستاذ السيد أبي الاعلى المودودي هما :

(١) موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه .

(٢) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم .

أما الرسالة الاولى ، فهي مقال كتبه الاستاذ لأول مرة سنة ١٩٤٠ لمجلة « الفرقان » الصادرة في تلك الأيام ، في مدينة بريلي بالهند لعددها الخاص بذكرى الامام ولي الله الدهلوي (١١١٤ هـ ـ ١١٧٦ هـ) ثم نشرها بصورة رسالة مستقلة ، وقد ظهر منها حتى الآن ، شأن غيرها من كتب الاستاذ ، ٧ طبعات باللغة الاردية . وترجمتها العربية هذه ، التي بين يدي القارىء العربي ،

هي أول ترجمة لها ظهرت بلغة غير اللغة الاردية[1] وقد قام بها اخونا الفاضل الاستاذ محمد كاظم السباق أحد زملاء دار العروبة ، ويجدر بنا الذكر أن الأخ الفاضل موظف رسمي كبير في « مؤسسة تنمية وسائل الري والكهرباء » في باكستان . وقد قام بهذا العمل الضخم ، على ارتباطه بالاشغال الهامة المنهمرة ، إسهاما منه في جهود مبذولة لنشر الدعوة الاسلامية في البلاد العربية . شكر الله سعيه وكثر من أمثاله في شباب هذه الامة وجزاه عن الاسلام خير ما يجزي به عباده الصالحين .

ويجمل بنا القول في هذا المقام أن القارىء الكريم اذا تصفح الكتاب فانه سيرى أن المؤلف الجليل عندما يحصى رجال الاصلاح والتجديد في تاريخ الاسلام وينوّه بأعمالهم في جلاء ديباجة الدين الحنيف وتطهيره من أدناس الجاهلية لم يذكر ، في عدادهم ، الامام الكبير مجدد القرن الثاني عشر محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ هـ ـ ١٧٠٦ م) على علوّ مكانته في هذا المجال . وهذا يرجع الى سببين : أحدهما ان المؤلف لم يرد في هذا الموجز استقصاء الجهود المبذولة في باب الاصلاح والتجديد واحياء الدين القيم من القرن الاول الى القرن الحاضر ، كما سيعلم

---

(١) كما ان ترجمتها باللغة الانكليزية على وشك الظهور ان شاء الله .

وستقوم بطبعها وتوزيعها دار النشر للكتب الاسلامية

Islamic publications Limited. shah alam Market, Lahore, Pakistan

وهي الدار التي تقوم بنشر جميع مؤلفات الاستاذ المودودي باللغة الاردية والبنغالية والانكليزية في باكستان .

ذلك القارىء أثناء قراءة هذه الرسالة . والثاني ان الجماعة الاسلامية قد قامت بنشر كتاب مستقل مسهب عن حياة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحافلة بجلائل الاعمال وعزائم الامور التي قام بها لاستئصال شأفة الشرك والوثنية والبدع ورفع ألوية التوحيد الخالص والسنة المحمدية في جزيرة العرب . والكتاب ألفه الاستاذ المرحوم مسعود الندوي (المتوفي سنة ١٩٥٤ م) قبل ١٧ سنة وسمّاه بـ (محمد بن عبد الوهاب ، المجدّد المفترَى عليه) . والاستاذ المرحوم قد بذل في تأليفه وجمع مواده من مصادر مختلفة وتحري الصدق بين الروايات وسرد أعمال الامام رحمه الله الاصلاحية على وجهها الصحيح ودفع الاتهامات التي ألصقها عليه المغرضون في البلاد العربية والهندية . مجهوداً علمياً كبيراً قوبل بالشكر والثناء والتقدير في الاوساط العلمية في الهند وباكستان . وقد ظهرت منه أيضاً طبعات عديدة باللغة الاردية . ونحن عاقدون العزم على نقله الى اللغة العربية بعون الله وتوفيقه .

والرسالة الثانية هي محاضرة ألقاها الاستاذ المودودي في مؤتمر الجماعة الاسلامية المنعقد في كراتشي في ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ من صفر سنة ١٣٧١ هـ وفق ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٥١ م . وكان قد قدم بين يديها محاضرة أخرى تحدث فيها عن المفاسد وضروب الانحراف في وضع باكستان ، ثم عرض في هذه المحاضرة ، التي نقدمها اليوم ، الى حقيقة دعوة الجماعة ، وأبان الهدف الذي يرمي اليه دعاة الاسلام ، ثم

تطرق الى دراسة واقع المسلمين ، وتتبع المفاسد الشائعة في حياتهم ، وردها الى أصولها في ماضيهم ، ثم تحدث عن الحضارة العربية المعاصرة ، واماط اللثام عن أهدافها التاريخية وطبيعة القوى التي توجهها والتيارات الفكرية والفلسفية التي حددت لها مثلها ، وما ترك احتكاك المسلمين بها من آثار متباينة في حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية ، ثم أفضى الى الحديث عن الطريق الذي اختارته الجماعة الاسلامية ـ تحت قيادته ـ لتحقيق أهداف الدعوة الاسلامية . وقد قام بترجمة هذه الرسالة الى العربية اخونا الفاضل الاستاذ محمد عاصم الحداد ، علما بأن هذه الرسالة قد ظهرت منها قبل سبع سنوات طبعة عربية مستقلة . وقد ضممناها الآن الى رسالة « موجز تاريخ تجديد الدين واحيائه » نظراً لاتحادهما في الموضوع ـ وهو السعي في احياء الدين واعادة مجد الاسلام ـ وتلبية لرغبة اخواننا العرب بنشر رسائل الاستاذ في صورة المجاميع .

وختاماً نسأل الله ان يمدنا بعون منه وان يجعل كل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم . وسبحانك اللهم وبحمدك ، ونشهد أن لا إله إلا أنت ، نستغفرك ونتوب إليك .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

خليل الحامدي

موجز تاريخ

تجديد الدين وإحيائه

كتبه بالأردية

أبو الأعلى المودودي

نقله الى العربية

محمد كاظم سباق

تمهيد

مما تردّده الألسنة كثيراً من كلمات المصطلح الاسلامي كلمةُ (المجدّد) . ومفهومها المجمل الظاهر يفهمه معظم الناس ، وهو أن المجدد كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها وجدد حبله بعد انتقاضه . الا أنه قل من ينتقل بفكره الى مفهومها التفصيلي الكامل ، وقلّ من يدري : ما هي حقيقة التجديد (Revival) وأي وضع من العمل يصح أن يعبر عنه بالتجديد ؟ وكم هناك لهذا العمل من النواحي وأي العمل الجليل هو الذي يُطلق عليه اسم التجديد الكامل ؟ وما هو التجديد الجزئي دونه ؟ فمن نتائج هذا الجهل أن الناس لا يتمكنون من أن يشخصوا جلائل أعمال الأمة والمصلحين الذين قد لقبهم التاريخ بالمجددين تشخيصاً صحيحاً موفقاً . وانما يقتصر عملهم على أن عمر بن عبد العزيز والغزالي وابن تيمية والشيخ أحمد السرهندي والامام ولي الله كلهم من المجددين . ولكنهم لا يعرفون الخصائص التي كانت ملاك صفاتهم التجديدية ولا يعلمون نوعية أعمالهم التجديدية ولا

درجاتها ومراتبها . ومن الأسباب الرئيسية لتلك الغفلة والذهول أن الأسماء التي تقترن بها كلمات (الشيخ) و (الامام) و (حجة الاسلام) و (قطب العارفين) و (زبدة السالكين) وما شاكلها من الالقاب قد تتأثر الاذهان بفكرة القدسيّة المتّسمة بها بحيث لا يكاد أحد أن يتجرأ على أن يستعرض أعمالهم بالنظرة العادلة والنقد الصريح فيقرر على التحديد كم من العمل قد قام به أحدهم لحركة التجديد ومن أي نوع كان عمله ؟ وما كان مبلغ نصيبه في القيام بتلك الخدمة الجليلة ؟ بل قد جرت عادة الناس على أَن يشيدوا بمآثر اولئك الاعلام بلغة العاطفة والشعر بدلا من لغة العلم والتحقيق التي لا وكس فيها ولا شطط ، مما يخيل الى القارىء وربما يخيل الى الكاتب كذلك وقت كتابته أن الموصوف كان رجلا كاملا فذاً وأن كل ما أتاه من العمل كان قد بلغ الذروة من الكمال . والحق أننا اذا أردنا اليوم السعي لبعث الحركة الاسلامية وتجديدها فانه لن يغني عنا ذلك الايمان التقليدي بعظمتهم شيئاً ، ولن يعود علينا ذلك الوصف المبهم الغامض بجدوى . بل لا بد لنا لأجل ذلك أن نستوفي البحث في ماهية عمل التجديد وأن نعود الى تاريخنا الماضي ، فننظر ما هو مبلغ العمل الذي قام به أئمتنا وهُداتنا في القرون الماضية المتعددة ، وأي منهج للعمل اختاروه لذلك ، والى أي حد نستطيع أن نستفيد من أعمالهم الجليلة وماذا فاتهم من الأمور مما يجب علينا أن نتداركه اليوم .

والموضوع يقتضي أن يؤلف فيه كتاب على حدة . ولكن

أنّى لي الفرصة لتأليفه في هذه الآونة . وانما سبق الكلام لذكرى الإمام ولي الله فاغتنمت الفرصة لأن ألم بهذا الموضوع . لعلّ ذلك يستحث بعض أولي الجدّ ويدله على اشارات للتبسط في الموضوع والاحاطة بجوانبه ، فيسجل تاريخ احياء الدين وتجديده . وهذه المقالة التي تنشر الآن في كتاب مستقل ، كنت كتبتها باديءَ ذي بدء لعدد مجلة (الفرقان) الممتاز الخاص بذكرى الامام ولي الله ، ولذلك قد توسعت فيها في ذكرى أعمال الامام رحمه الله التجديدية توسعاً لا بأس به . ولم تذكر فيها أعمال من سواه من المجددين الا عرضا . ومما ينبغي أن يلاحظه القارىء حين قراءته لهذه المقالة أنه ليس المقصود بها الأحاطة بأعمال جميع من سلف من المجددين في الأمة المسلمة وانما ذكرنا فيها الجلّة من المجددين الذين خلفوا وراءهم في التاريخ الاسلامي آثاراً مستقلة خالدة . وليكن منه على ذكر كذلك أن عمل التجديد قد قام به في كل عصر أناس متعددون الا أنه قلّ من يجدر منهم بأن يلقب بالمجدد .

النزاع الفكري والتاريخي بين الإسلام والجاهليّة

لا بد لمن أراد أن يبحث في حقيقة التجديد ونوعيته من ان يحيط خبراً بما قد جرى في التاريخ من النزاع الفكري بين الإسلام والجاهلية . ذلك بأن التجديد في حقيقته عبارة عن تطهير الإسلام من أدناس الجاهلية وجلاء ديباجته حتى يشرق كالشمس ليس دونها غمام ، فالمرء لا يمكنه ان يعرف حقيقة التجديد ولا ان يتناول أعمال أحد من المجددين بالنقد ما دام لم يتضح له أمر هاتين القوتين المتصارعتين وما قد كان ولا يزال يجري بينهما من النزاع .

من البديهي أنه أيما نظام يقرر للحياة الإنسانية في هذه الدنيا ، لا جرم أن يكون مبتدأه مسائل الالهيات او مسائل ما وراء هذا العالم الطبيعي . فانه لا يمكن ان يوضع لحياة الإنسان منهاج ما لم يحصل تصور واضح معين للإنسان وللكون الذي هو يعيش فيه ، وأما أنه ماذا ينبغي أن يكون سلوك الإنسان في هذه الدنيا وكيف ينبغي له أن يعمل فيها ، فانه منوط في حقيقة الأمر بسؤال آخر وهو عن الإنسان ، ما هو ؟ وماذا مقامه ومنزلته في هذا الكون ؟ ومن أي طراز نظام

... الكون ؟ ـ الذي يجب ان يلائمه وينسجم معه طراز حياة الإنسان ؟ ـ وأيّما حل يخرج لهذا السؤال تبنى عليه نظرية بعينها للاخلاق ووَفقاً لوضع تلك النظرية الخلقية تُرتَّب الشعب المختلفة للحياة الإنسانية . ثم في هذه الصيغة تتشكل القوانين المتصلة بسيرة الفرد الإنساني وسلوكه وبعلائق الجماعة الإنسانية وشؤونها في أشكالها الكاملة التفصيلية ، حتى يقوم على هذه القواعد آخر الأمر بنيان المدنية بأكمله . ومن الحق أن كل ما اتخذه البشر في هذه الدنيا الى الآن من المذاهب والمشارع ، لم يجد أحد منها بُداً من ان يصطنع له فلسفة جوهرية نظرية خلقية أساسية . وهذه النظرية وتلك الفلسفة هما اللتان تفرقان بين مذهب ومذهب وتميزان أحدهما عن الآخر في المسائل الرئيسية الأصلية الى الأمور الصغيرة الفرعية فانه وفقاً لطبيعتها يتركب مزاج كل دستور للحياة وتكون له هاتان كالروح في الجسد .

وإذا صرفنا النظر عن المسائل الجنسية والفرعية ولم نراع لا المبادىء والأصول فانا نرى أنه لا يمكن ان يوضع بشأن الإنسان وبشأن هذا الكون إلا أربع نظريات متباينة ليس غير . كل ما يوجد اليوم في العالم من نُظم الحياة . لم تختر إلا إحدى تلك النظريات الأربع .

١ ـ الجاهلية المحضة

فالنظرية الأولى منها تقول بأن نظام هذا العالم كله حادث حدث مصادفة . فليس ورائه من حكمة تدبره أو غاية

مصطلحة تسيِّر دفته . وإنما ظهر الى الوجود فجأة ، وهكذا هو سائر في طريقه بلا قصد أو غاية ، وسوف يبلغ منتهاه من غير أن يكون له عاقبته . وأنه ليس له من إله ، وان كان ، فلا شأن لوجوده او عدمه في حياة الانسان . أما البشر فنوع من الحيوان ، لعله خرج الى الوجود مصادفة كسائر الموجودات . ولا يعني المستمسكَ بهذه النظرية البحثُ في أنه من خلقه ؟ وإنما حسبه ان يعلم عن نوعه البشري أنه يوجد على هذه المعمورة ، وله رغبات تدفعه طبيعته على تحقيقها ، ويملك من القوى والوسائل ما قد يستعين به على نيل تلك الرغبات . ثم يرى الارض من حوله مشحونة بأنواع المُتَع ومرافق العيش يمكنه ان يعالجها بما يملك من القوى والوسائل فيتذرع بها الى قضاء رغباته . وإذن لا غاية إلا أن يقضي مطالب طبعه الحيواني ولا وجه لاستخدام ما ادخر فيه من الكفاءات الانسانية غير أن تزوده بأقوم الوسائل الى قضاء تلك المطالب . ثم إنه لا مأخذ للعلم ولا مصدر للهداية والارشاد من فوقه ، حتى يستمد منه قانون حياته . وعلى ذلك ليس له الا أن يستخرج بنفسه قانونا للسلوك والعمل الانساني في هذه الدنيا ، مما يحيط به من الآثار والظروف ومما يفيده التاريخ من العبرة والتجارب ، وليس هناك في الظاهر البادي حكومة يكون الانسان مسؤلا أمامها ؛ فهو بذلك كائن مستقل لا مسؤولية عليه ولا تبعة في عنقه . وإن كان مسؤولا أمام أحد ، فبين يدي نفسه أو بين يدي السلطة التي تنبعث من الجنس البشري نفسه وتحتكم في مقادير أفراده .

وأما نتائج أعمال الانسان فمنحصرة في هذه الدنيا وليس وراءها من حياة أخرى ، ومن ثم يجب ان يكون الحكم بصحة أمر من الأمور أو خطئه ، وبنفعه او مضرته وبكونه جديراً بالأخذ أو بالترك مبيناً على ما يظهر له من النتائج في هذه الدنيا فحسب !

وما دام الانسان في حالة الجاهلية المحضة اي ما دام لا يدرك أي حقيقة فيما وراء ما يحسه او يلمسه أو يحب أن يدركها تبعاً لهوى النفس فانما تكون هذه النظرية هي المستولية على ذهنه . وهي التي ما زال المفتونون بعرض الدنيا يختارونها لأنفسهم في كل زمان وآثرها – كذلك – الملوك والأمراء ورجال حاشيتهم كما آثرها أرباب الحكم والأمر وأهل الرفاهة وعشاق العيش الرغيد في كل عصر ، اللهم الا النزر القليل الذي عصمه الله منهم . وهذه بعينها لم تزل تعمل على العموم من وراء حضارات الأمم التي قد جاء التاريخ يشيد كثيراً برقيّ مدنيتها . ثم هذه هي اليوم أساس المدنية الغربية الحديثة . وان أهل الغرب وان لم يكونوا كلهم منكرين لوجود الله تعالى واليوم الآخر أو قائلين بالاخلاق المادية البحتة من الوجهة العلمية الا أن الحق أن الروح التي تتمشى في نظام حضارتهم ومدنيتهم بأسره هي روح الجحود لذات الله تعالى والانكار لليوم الآخر ، وروح الاخلاق المادية الخسيسة . وقد بلغ من تغلغل هذه الروح في حياتهم أنك تجد الذين يؤمنون منهم بوجود الله تعالى واليوم الآخر من الوجهة العلمية ، ويعتقدون في الاخلاق نظرية غير مادية – تجدهم في حياتهم الواقعية دهر بين ماديين من حيث لا

يشعرون . لأنه ليس هنالك من سبب يصل نظريتهم العلمية بحياتهم العلمية فعلاً . وهذه الحال بعينها كان عليها من تقدَّمهم في التاريخ من المترفين الغافلين عن الله تعالى . فلم تكن الطبقة المترفة في بغداد ودمشق ودهلي وغرناطة منكرين لوجود الله تعالى لكونهم مسلمين ، ولكنهم كانوا يتبعون في حياتهم منهاجاً عملياً يخيل الى المرء كأن القوم ليس من فوقهم إله ، وليس وراء حياتهم الدنيا من يوم آخر ، ولا هم محاسبون أبداً بين أيدي أحد ، ولا هم في حاجة الى هداية هاد . وكأني بهم كانوا يظنون أن كل ما يجب أن يعنوا به في هذه الدنيا هو أهواؤهم ورغباتهم ، وهم أحرار طُلقاء في أن يتخذوا لتحقيقها كل ما يشاؤون من فنون الطريق وأنواع الوسائل ، وأن كل ما أوتوه من فرصة العيش في هذه الدنيا فأحسن الوجوه لأنتهازها كما قال الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشيّة من عرار

فمن صميم طبع هذه النظرية ـ كما أشرت اليها آنفاً ـ أن ينشأ على أساسها نظام خلقي قائم على الافتتان بالمادة ، سواء أبقي هذا النظام مدوّناً في الكتب أو مرتباً في أذهان الناس . وتجيء هذه العقلية فتجري في جميع العلوم والفنون والافكار جريان الماء في عروق النبات ، وتسري روح الالحاد والمادة في نظام التعليم والتربية بأسره ، فتُفرَغ سِيَرُ الافراد في قالبها ، وتصاغ صور العلائق والمعاملات بين أفراد البشر في صيغتها ، وتجري الشرائع وتتقدم القوانين على هديها حتى يطغوا على عباب هذا النمط من المجتمع رجال يكون أحذق خلق الله للكيد

وأقدرهم على الكذب وأطبعهم على الغش وأقساهم قلباً وأخبثهم نفساً ، فيقبضون على أزمة حكم البلاد وقيادة الأمم ، ويركبون رقاب الناس بمفاسدهم ومساوئهم لا يخافون حسابا ولا يبالون مؤاخذة ثم يبنون جميع خططهم العلمية على مبادىء السياسة الميكيافيلية (Macqiavellian) وتعود القوة في مصطلح قانونهم حقاً ، ويعود الضعف في لغتهم باطلا . وما دام لا تحول بينهم وبين الظلم والعدوان عقبة متجسمة ، لا يمنعهم من ارتكابها مانع . وكل هذا الظلم يتأدى داخل حدود الدولة إلى أن تأكل الطبقات القوية الطبقات الضعيفة وتذللها تذليلا ، ويتأدى في خارج الدولة الى أن تتقوى العصبية الجنسية وتقوم التسلطية المستبدة ويفحش هوى استعمار الدول والممالك ووضع السيف في رقاب الأمم .

٢ ـ جاهلية الشرك :

والنظرية الثانية في مسائل ما وراء الطبيعة تقول بأنه لا ريب أن نظام هذا الكون لم ينبعث مصادفة ولا هو قائم بدون إله . إلا أنه ليس له إله واحد ، بل آلهة متعددة . ولما كان هذا الظن لا يقوم على برهان علمي ثابت ، وانما كان مصدره التخرص والرجم بالغيب ، فلا يكون أبداً ان يتفق المشركون فيما بينهم في نسبة الألوهية الى الأشياء المتوهمة والمحسوسة والمعقولة ، ولا هم قد اتفقوا فيه فعلا . بل بقي اولئك المتخبطون في الظلام يتّخذون كل ما وقعت عليه ايديهم إلهاً لأنفسهم وظل ثبت آلهتهم يطول ويقصر على مرور الأيام . فلم تزل الملائكة والجن

والأرواح والكواكب وأفراد البشر من الأحياء والأموات والشجر والجبال والحيوان والبحر والبر والنار والمعاني المجردة كالحب والجمال والشهوة ، وقوة الانشاء والابداع ، والمرض والحرب وآلهة الثروة وآلهة القوة ثم الاجسام المركبة الخيالية كالانسان الأسد والانسان السمك والانسان الطائر ، والجسد الانساني ذي أربعة رؤوس وذي الالف يد وذي أنف كخرطوم الفيل لم يزل كل اولئك يحل محل الآلهة في قلوب المشركين . ثم نسج حول هذه الطائفة من الآلهة طلسم عجيب من الأوهام والخرافات ، أمده ما اختصت به كل امة جاهلة من قوة التوهم والخيال بنماذج رائعة من خصوبتها وعبقريتها ، تتحير فيها العقول . فاما الامم التي عندها تصور واضح للاله الاعلى – اي الله سبحانه – فان نظام الالوهية عندها جارٍ على ان الله تعالى هو الملك ، وانه تقوم سائر الآلهة منه مقام الوزراء والحاشية والمصاحبين والموظفين والعمال . وانه ليس في مكنة الإنسان ان يصل إلى الملك الاعلى ، وان جميع شؤون حياة الناس منوطة بتلك الآلهة التابعة . واما الامم التي يستبهم عندها تصور الاله الأعلى او يكاد ينعدم فان الالوهية عندها قد تقسمتها الارباب المتفرقة فيما بينها .

وهذا نوع ثان للجاهلية قد بقي يتورط فيه الانسان بعد الجاهلية الخالصة منذ أقدم عصور التاريخ إلى يومنا هذا . ولم تعتره هذه الحالة إلا حينما انحطت عقليته إلى الدرك الاسفل . وأما الطبقات التي بلغها تعليم الانبياء وآمن أهلها بالوهية الله

الواحد القهار . فقد زال عنهم الاعتقاد بسائر أنواع الآلهة ، ولكن بقيت ألوهية الانبياء والاولياء والشهداء والصالحين والمجاذيب والاقطاب والأبدال والعلماء والمشايخ والملوك الملقبين بظل الله في الأرض ، قد بقيت ألوهية كل أولئك تجد سبيلها إلى عقائدهم من هذا الطريق أو ذاك . واتخذت العقول الجاهلة عباد الله الصالحين الذين صرفوا أعمارهم في إبطال ألوهية العباد وإقرار ألوهية الله تعالى وحده ، آلهة لها عوضاً عن آلهة المشركين . فبجانب ابتدعوا مكان شعائر المشركين وتقاليدهم شريعة جديدة من أعمال الفاتحة وزيارات القبور وتقديم النذور والصدقات والاحتفال بذكريات الموتى ووضع الصندل والتحائف على الاضرحة ، ورفع الرايات والاعلام على توابيت الشهداء . وبجانب آخر أنشأوا من غير بينة علم خرافات برأسه من أحوال موالد أولئك السلف الصالحين ووفياتهم ، وظهورهم وغيابهم وكمالاتهم وخوارق عاداتهم وتصرفاتهم وتقربهم الى الله تعالى ، يضارع من جميع الوجوه خرافات المشركين ويناظرها ومنهم من جعلوا كل ما يكون بين الله وبين عباده من المعاملات منوطا أمرها باولئك السلف الصالحين بعد ان موهوها بطلاء ذهبي من المصطلحات كالتوسل والاستمداد الروحي ، واكتساب البركة والنفع . فاصبحت الحال عند هؤلاء في واقع الامر كما هي عند أهل الشرك الذين يعتقدون ان الملك الاعلى أبعد جداً من أن يصل اليه الانسان ، ولا تتصل جميع شؤون حياة الانسان الا بعماله التابعين له . ولم يعد

بينهما من فرق سوى ان اولئك يصرحون بتسمية أولئك العمال آلهة وأوثانا او مظاهر للاله او أبناء لله ، وهؤلاء يخفون مكانهم من وراء حجب المصطلحات كالاغواث والاقطاب والابدال والاولياء وأهل الله وما شاكلها من الالقاب .

وما زال هذا النوع للجاهلية يساعد النوع الاول ـ اي الجاهلية المحضة ـ عامة في عصور التاريخ . وكان نوعا الجاهلية هذان ممتزجين بعضهما ببعض في المدنيات التي قامت في الازمنة القديمة في بابل ومصر والهند وفارس واليونان وروما وغيرها من الممالك . وعلى هذا تقوم حال المدنية في اليابان في عصرنا الحاضر . ولتلك المساعدة وذاك الامتزاج أسباب نشير الى بعضها فيما يلي :

اولها : انه لا يكون في جاهلية الشرك بين المرء وبين آلهته من علاقة سوى انه يعتقد ـ بزعمه ـ انها ذات القوة والسلطان وبيدها النفع والضر ، ثم يحاول استعطافها والاستعانة بها في شؤون حياته الدنيا باداء فنون شعائر العبودية بين يديها . اما ان يتلقى من قبلها هديا في باب الاخلاق او شرعة ومنهاجا للحياة ، فمما لا يمكن ان يكون ، لانه ليس هناك من اله في الحقيقة حتى ينزل على الانسان شيئاً من ذلك . واذا انعدمت الهداية من اله فلا محالة ان يتخذ المشرك بنفسه نظرية للاخلاق ثم يضع على أساس تلك النظرية شرعا بعينه . وهناك تعود وتمتلك ناصية الامر تلك الجاهلية المحضة التي قد مضى ذكرها . فلا يكون من فرق بين حضارة الجاهلية المحضة وبين حضارة جاهلية الشرك

الا وجود بيوت الاوثان وسدنتها وصنوف العبادات في هذه وعدمها في تلك ، أما الاخلاق والاعمال فتكون سواء بسواء في كلا الجانبين . وهذا هو السبب فيما تراه من المماثلة بين الطبع الخلقي الذي امتاز به أهل اليونان القديمة وروما الوثنية وبين الذي يمتاز به الآن كثرة أهل اوروبة اليوم .

والثاني : ان نظرية الشرك لا تهيء للعلوم والآداب والفنون والفلسفة والسياسة والاقتصاد أساساً مستقلا ثابتاً ولا بد للشرك ـ من هذه الناحية أيضاً ـ ان يولي وجهه شطر الجاهلية المحضة . ويحصل النشوء والارتقاء الفكري في المجتمع المؤسس على قواعد الشرك على النمط الذي يتم عليه في المجتمع الجاهلي المحض . ولا فرق بين الاثنين الا ان تفرط في المشركين قوة التوهم ، فيرجع في أفكارهم عنصر التخيل والتطور . ويكون الملاحدة ـ بخلاف ذلك ـ اناساً معنين بالعمل ، فلا تروقهم تلك الفلسفات الخيالية الفارغة . ولكنهم مع ذلك اذا تعرضوا لحل لغز هذا الكون الموجود بغير الله ، فان تكلفاتهم في المنطق ومحاولاتهم في الإستدلال لا تكون أسوغ في العقل من خرافات المشركين . ومهما يكن من الامر ، فليس هناك فرق جوهري من الوجهة العلمية بين الشرك والجاهلية المحضة . والدليل البين على ذلك ان اوروبة الحاضرة تمت اليوم في نظرياتها الجديدة الى اليونان وروما كما يمت الخلف الى سلفه .

والثالث : ان المجتمع القائم على نظرية الشرك يكون مستعداً دوماً لقبول ما يتخذه المجتمع الجاهلي الخالص من

أساليب المدنية . حقاً ان طرق إلشرك والجاهلية المحضة في بناء المجتمع وتنشئته يختلف بعضها عن بعض قليلا ، ممملكة الشرك يحل فيها أهل السلطان محل الآلهة وتظهر ف طبقة من الأئمة الروحانيين وأصحاب المناصب الدينية بامتيازات خاصة ، وتتعاون البيوتات المسيطرة والطبقات الدينية فتضع نظرية برأسها في أفضلية بعض البيوتات على الاخرى وتفوق بعض الطبقات على سائرها وتتسلط بذلك على العوام الجهل باسم الدين وتستبد بامورهم بغير الحق ، وفي المجتمع الجاهلي الخالص ـ بخلاف ذلك ـ تظهر هذه المفاسد في مظاهر العصبية الجنسية والوطنية المتطرفة وتسلط القومية الدكتاتورية والرأسمالية والنزاع الطبقي بين عناصر الأمة . الا انه لا شك في انهما من حيث الروح والجوهر سيان متماثلان في فرض ألوهية البشر على البشر وقطع علاقة الانسان بالانسان وتجزئة النوع الانساني أجزاء ، ثم جعل افراد هذا النوع الواحد كالسباع الضارية يأكل بعضها بعضاً !

جاهلية الرهبانية :

والنظرية الثالثة في مسائل ما وراء الطبيعة تقول ان هذه الدنيا وهذا الوجود الانساني المجسد دار عذاب وشقاء للانسان . وما روح الانسان في هيكل جسده الا كالاسير حبس في السجن جزاء ما قدمت يداه . واما اللذات والرغبات وجميع ما يمس الانسان من الحوائج لعلاقة روحه بالجسم ، فهي في نفس الامر أغلال هذا السجن وسلاسله . وكلما ازداد الانسان تعلقاً بهذه

الدنيا وما فيها من متع العيش ولذاته ازداد تلوثاً بالرجس والنجس على قدر ذلك استحق زائد العذاب فلا سبيل اذن لنجاة المرء في مآل امره الا ان ينقطع عن مشاغل هذه الحياة ، ويذلل الرغبات ويجتنب اللذات . ويضرب عن قضاء حوائج الجسد وتحقيق مآرب النفس ، ويجرد القلب عن كل ما يعلق به من ألوان الحب لمتاع الدنيا ومن أصناف المودة لقرابات الرحم ثم يعذب عدوه ـ أي النفس والجسم ـ بتجشيمه المشاق والرياضات عذاباً يضعف سلطاته على الروح حتى تعود لطيفة صافية قوية على الصعود في معارج النجاة العليا .

وهذه النظرية على كونها معاكسة للمدنية والعمران (Anti - Social) في ذاتها ، تؤثر في المدنية والحضارة من جهات شتى . وذلك ان ينهض على أساسها نظام للفلسفة مخصوص ، قد عرفت أشكاله المتعددة بأسماء الفلسفة الويدانية والاشراقية واليوجية والرهبانية المسيحية والمذهب البوذي وغير ذلك . وتتكون مع هذه الفلسفة نظام للاخلاق يكون في أقله ايجابيا وفي أكثره بل كله من النوع السلبي . ثم تنفذ تلك الفلسفة وهذا النظام الخلقي الى العقائد والآداب والاخلاق والحياة العملية ، وحيثما تبلغ آثارهما تعمل عمل المخدرات في تعطيل القوى وتضعيف الهمم وتقليل الحركة والنشاط .

ويأتي هذا النوع الثالث مؤازرا لنوعيهما الاول والثاني من ثلاثة أوجه :

اولها : ان هذه الجاهلية الرهبانية تعزل أهل البر والصلاح

من أفراد الجماعة الانسانية عن امور هذه الدنيا ومشاغلها وتنبذ بهم الزوايا والخلوات ، ويخلو الجو لشر أنواع المفسدين ، الذين يتولون أمر هذه الارض فيفسدون فيها كما يشاؤون ، بينما يظل الصالحون يرهقون نفوسهم بصنوف المشاق والرياضات حرصا على نجاتهم .

والثاني : ان هذه الجاهلية حيثما ينفذ أثرها في عامة الناس ، تجعلهم لقمة سائغة لاهل الظلم والعدوان بما تنشيء فيهم من الصبر واحتمال الموضوع في غير موضعه ، وبما تبعث في نفوسهم من التشاؤم والقنوط . لاجل ذلك لم يزل الملوك والامراء والطبقات ذات السلطة الدينية يعنون عناية خاصة بنشر تلك الفلسفة الخلقية الرهبانية في رعاياهم ومتبعيهم . ولم تزل هذه تعم وتنتشر في الارض بكل سهولة تحت عنايتهم واشرافهم . وانك لا تجد في التاريخ في عصر من عصورها ان تكون هذه الفلسفة الرهبانية قد خالفت التسلطية او حاربت الرأسمالية أو ناضلت الدولة البابوية الدينية .

والثالث : انه عندما تخيب هذه الفلسفة ونظام الاخلاق الرهبانيان في اصلاح البشر وينهزمان في وجه طبيعته وفطرته فانهما يلجآن الى سجف الحيل والمعاذير يستتران بها . فتارة تبتدع عقيدة كفارة المسيح ليتسنى للمرء ان ينهمك في الملاهي والمآثم في هذه الدنيا بلا حذر ، ثم لا ييأس من دخول الجنة في اليوم الآخر ، وأخرى حاول اتباع الشهوات باسم العشق المجازي المطهر حتى يتيسر للمرء ان يقضي لبانة نفسه الامارة

بالسوء بدون ان تتهم قداسته : وطوراً يأتي أولو الدهاء ويتآمرون مع الملوك والأمراء باسم الزهد في هذه الدنيا ثم ينصبون للعوام السذج من اشراك اماراتهم الروحية ما قد رأيت المثلة البشعة الشنيعة في باباوات الرومة في الغرب وفي أصحاب المساند الدينية المتوارثة في الشرق !

هذا ما بين الجاهلية الرهبانية وبين اخوتها من جنسها . واما اذا دب دبيب هذه الجاهلية الى امم الانبياء والمرسلين عليهم السلام فإنها تأتي بالأعاجيب . فأول ضربة تصيب بها هذه الجاهلية دين الله هي انها تجعل الدنيا في عين المرء داراً للعذاب وشرك المتع والاموال بدلا من ان تريه اياها دار العمل وساحة للامتحان ومزرعة للآخرة . واذا تغيرت نظرية الانسان هذا الاساسي ، بانه ينسى كونه قد بعث في هذه الدنيا خليفة لله تعالى ويذهب به الظن انه لم يبعث في هذه الدنيا لأجل أن يعمل ويعالج أمورها ، بل قد طرح في مستنقع آسن يجب عليه ان يخلص منه ويفر عنه وان موقفه الصحيح فيها ان يحيا حياة الهارب المنعزل ، ولا يأخذ على نفسه أية تبعة او مسؤلية ، بل يجانب كلى ذلك ويتفادى منه . وبهذا الفكر المريض يعود الانسان ينظر الى الدنيا وشؤونها نظرة الساهم الهيوب ، بفزع حتىٰ من القيام بتبعات المدنية والحضارة فضلا عن النهوض بأعباء الخلافة . ويعود له نظام الشرع بأسره شيئاً لا طائل تحته . ويعزب عن ذهنه ان العبادات والأوامر والنواهي كلها مما يؤهل المرء للقيام باصلاح أمور هذه الدنيا ويرشحه للاضطلاع بأعباء الخلافة منها ، بل يصبح

المرء يزعم بالعكس من ذلك أن تلك العبادات وبعض الاعمال الدينية المعينة هي ذاتها كفارة الذنب مجيئه في هذه الدنيا ، فهي التي يجب أن ينهمك فيها المرء ويواظب على تأديتها كاملة بجميع صورها التفصيلية حتى ينجو في الآخرة .

وكان من جريرة هذه العقلية المريضة انها جعلت طائفة من امم الانبياء يعمهون في أعمال الرياضة والمجاهدة والتشوف* الى الغيب وتكرار الاوراد والوظائف والاحزاب والعمليات ، والتجول في المقامات الروحية العليا ، كما جعلتهم يستغرقون في التعبيرات الفلسفية لحقائق الاشياء وشغلتهم بالنوافل والمستحبات أكثر من شغلهم بالفرائض والمكتوبات فألهتهم عن القيام بأمر الخلافة الالهية في هذه الدنيا وهو العمل الجليل الذي قد بعث لاجله الانبياء عليهم السلام . وتخبطت الطائفة الاخرى فأصيبت بداء التقشف في المعيشة والغلو في الدين والتفنن في تعليل الامور وشدة الاعتناء بالتوافه والاهتمام المفرط للجزئيات حتى أصبح لهم الدين الالهي كالزجاجة النفيسة يخشى أن تتكسر شذر مذر ما يصيبها من صدمة . وكل ذلك أفضى بهم الى ان جعلوا يقضون أعمارهم في التحذر والحيطة : أن لا تصدر منهم هذه الهفوة ولا تفرط تلك البادرة ، كيلا ينفلت من أيديهم حبل دينهم المضطرب . ولما أخرجوا في الدين تلكم المسائل الرقيقة والجزئيات الدقيقة ، كان لا بد أن يجمد الفكر ، ويضيق النظر ، وتخور الهمة !

الاسلام :

وأما النظرية الرابعة لمسائل ما وراء الطبيعة فهي ان هذا الكون الواسع المثبوت فيما حولنا ، الذي نحن جزء من أجزائه ، هو في حقيقة الامر مملكة مليك مقتدر ، هو الذي قد أعطاها الحق وهو مالكها الوحيد وحاكمها الفرد بلا شريك . فلا ينفذ لغيره في هذه المملكة أمر ، بل كل من فيها منقاد لأمره وتابع لحكمه . والقوة والسلطان كله بيد ذلك المالك الحاكم وحده . أما الانسان فرعية هذه المملكة بحكم خليقته وفطرته ، ولا يرجع الامر في ذلك الى اختيار ، وانما ولد في هذه المملكة رعية ومملوكا ، وليس في مكنته ان يكون شيئا غيره . فلا مجال في هذا النظام لاستقلال الانسان بالامر وكونه غير مسؤل في نفسه ولا يمكن ذلك طبعا . وإذا كان الانسان قد ولد رعية من رعايا هذه المملكة ونشأ جزءاً من أجزائها فلا مندوحة له من ان يطيع امر الملك كما يطيعه سائر اجزاء المملكة . وليس له أن يضع بنفسه منهاج حياته ويعين فرائضه وواجباته ، وانما عليه ان يمتثل ما يأتيه من الهدى من عند مالك الملك ، وطريق ذلك الهدى هو الوحي ، الذي ينزل من السماء على صفوة من البشر يقال لهم « الرسل والأنبياء » .

على ان مالك الملك قد تلطف في امتحانه الانسان بأنه أخفى نفسه وأخفى مع ذلك كل ما يدبر به أمر مملكته من نظام ملكوته الداخلي . ففي رؤية العين ترى هذه المملكة تسير بنفسها لا حاكم يدبر ولا عمال يسعون ، وانما يجد الانسان نفسه

بين معمل عظيم يتحرك ويجري فيما حوله ولا يحس بمشاعره المادية انه عبد محكوم لمالك او محاسب بين يدي احد . ثم لا يرى في شهوده وعيانه من الآيات البارزة ما يكشف له كل الستر عن حقيقة حاكمية مالك الملك ويبرهن كون الانسان محكوماً له ومسؤولاً أمامه ، حق تجلى له الحقيقة كالشمس في رابعة النهار ولا يبقى له من قبولها مناص . فالرسل يبعثون ويأتيهم الوحي ولكن الانسان لا يراه ينزل عليهم عياناً وكذلك لا ينزل معهم من الآيات المبرهنة ما لا يدع المرء عن الايمان بهم محيصا . والمرء بعد ذلك يجد نفسه حراً مختاراً في دائرة من الأعمال ، فاذا شاء أن يبغي على مالكه ، أوتي القدرة عليه ، وهيئت له الوسائل اليه ومدت له المهلة لأجله ، حتى ولا يحول بينه وبين ان يبلغ أقصى حدود الخبث والعصيان شيء واذا شاء ان يعبد ذواتاً اخرى من دون مالكه الحقيقي فلا يمنع عن ذلك قهراً ، بل يخلى له ان يبعد لمن يشاء ويعبد من يريد ويطيع من يبغي . وفي كلتا الحالين ـ اي حالة بغيه على المالك وحالة عبادته لغيره ـ لا يزال يرزق رزقاً مطرداً ، ولا يزال يبسط له في مرافق الحياة وأدوات العمل ومتع العيش ، على حسب مكانته ، من اول عهده بالحياة الى آخر أنفاسه . ولا يمنع احد من العصاة او العابدين لغير مالك الملك شيئاً من أسباب الحياة لمجرد عصيانه ذلك . والمقصد الوحيد بكل هذا الوضع العجيب ان الخالق قد شاءت مشيئته ان يبلو الانسان في كل ما آتاه من قوى العقل والتمييز والاستدلال والارادة والاختيار ، وان يمتحنه فيما خوله من القدرة على ان

يتصرف في خليقته التي لا تعد ولا تحصى تصرف الحاكم الآمر . ولاتمام ذلك البلاء والامتحان قد ضرب على الحقيقة حجاب الغيب حتى يختبر عقله ، وخلى الانسان في انتخاب الطرق والمناهج لسلوكه في هذه الدنيا ، حتى يعلم : هل يتبع الحق بعد أن يعرفه عن رضى وغير اكراه او ينصرف بوجهه عنه اتباعاً لأهوائه وشهواته . ثم قد زود في حياته بمرافق الحياة وأدوات العمل ، وأمهل فيها مدة عمره الطويل ، ذلك بأن عاملا ما لم يكن لتمتحن كفايته ما لم يتح له رأس المال ووسائل العمل وفرصه .

ولما كانت هذه الحياة الدنيا مهلة اريد بهـا بلاء الانسان واختباره ، فلا جزاء فيها ولا عقاب . وكل ما ينعم به المرء في هذه الحياة فليس جزاء لعمل صالح أتاه ، بل هو مادة من مواد اختباره . وكل ما يمسه فيها من الضر ويصيبه من الشدائـد والآلام فليست عقاباً على ذنب جناه بل هي في أغلب الأحيان نتائج لأعمالهم قد ظهرت بحكم القانون الطبيعي الذي بني عليه نظام هذا العالم . واما نقد اعمال الانسان والمحاسبة عليهـا والفصل في امرها فموعده بعد انقضاء الاملاء والاستدراج هذه . وذلك الموعد يقال له الآخرة . فيتبين من ذلك ان ما يظهر في الدنيا من نتائج اعمال الانسان ، لا يجوز ان تكون ميزاناً تقاس به صحتها وبطلانها ويحكم بكونها جديرة بالأخذ او بالرد . وانما المقياس الحقيقي هي النتائج التي تظهر لتلك الأعمال في الدار الآخرة . واما العلم بأنه أي الطريقة أو العمل ستكون نتيجته

في اليوم الآخر محمودة وأي الطريقة والعمل تكون عاقبته فيه سيئة فلا يمكن ان يؤخذ الا من الوحي الذي ينزل على الأنبياء عليهم السلام. وإذا صرفنا النظر عن جزئيات الأمور وتفاصيلها فان الأمر الفيصل الذي تتوقف عليه سعادة الانسان وخسرانه في الدار الآخرة هو اولاً : انه هل تفكر الانسان في آيات الله الواسعة وعرف على وجه النظر والاستدلال ان الله هو الحاكم الحقيقي في ملكوت الأرض والسماء وعرف ما جاء به رسله وانبياؤه من الهداية والرسالات من عنده ، فآمن بها ؟ وثانياً انه بعدما أدرك الحقيقة ، بل رضيت بها نفسه واسلم وجهه لحاكمية الله الواحد الأحد واخلص دينه له واتبع شريعته ، على ما أوتي من حرية في الرأي وخير في الأمر

وتلك هي النظرية التي ما زال الانبياء عليهم السلام يدعون اليها منذ الابد . فأنت تجد في هذه النظرية ما يعلل كل ما هو واقع في هذا العالم تعليلاً مستوفى ، وما يفسر آثار الكائنات وحقائقها تفسيراً كاملاً . ثم هذه النظرية لا يبطلها شيء مما يشاهده الانسان بعينه أو يجريه بعمله . وهي تنشىء نظاماً للفلسفة مستقلاً يخالص فلسفات الجاهلية في أصله وجوهره ، وترتب معارف الانسان ومعلوماته لهذا الكون وللوجود الانساني نفسه على اسلوب آخر يختلف اختلافاً بيناً عما ترتب عليه علوم الجاهلية ، وتمهد لنشوء الأدب والفن وارتقائهما سبيلاً آخر يخالف السبل يتخذها ويسير عليه الأدب والفن الجاهليان وتحدث في جميع شؤون الحياة ومسائلها وجهة للنظر مخصوصة ومقصداً

معيناً معلوماً لا يلائمان ـ اصلها ومبدئهما ـ مقاصد الجاهلية ومناحي نظرها ، وتقيم نظاماً متبايناً للاخلاق لا يمت الى نظام الاخلاق الجاهلي بسبب . ثم ان الحضارة التي ينهض بنيانها على تلك القواعد من العلم والاخلاق تأتي مختلفاً وضعها البتة عن وضع جميع الحضارات الجاهلية ، ويقتضي تعددها والقيام بأمرها نظاماً للتعليم والتربية من الطراز الآخـــر تجيء مبادؤه مناقضة لكل ما في الجاهلية من نظم التعليم والتربية . جماع القول ان الروح التي تجري وترقرق في عروق هذه الحضارة وشرايينها هي روح الاعتقاد بحاكمية الله الواحد القهار والايمان باليوم الآخر والتسليم بكون الانسان عبداً لله ومسؤولاً بين يديه . وبخلاف ذلك يقوم نظام المدنية الجاهلية بأسره على الانسان وحريته وعدم تقيده بقيد الدين أو الخلق وبراعته من المسؤولية امام احد . ومن اجل ذلك كله يأتي مثل الانسانية الذي ينبعث من الحضارة القائمة على ايدي الانبياء عليهم السلام مغايراً جداً في مظاهره وسماته وفي الوانه واشكاله عن المثل الذي تنتجه الحضارة الجاهلية .

ثم ان صورة المدنية التي تترتب بجميع شعبها وتفاصيلها على هذا الأساس تأتي مختلفةِ كل الاختلاف عن صورة أي مدنية أخرى في العالم . فتقوم هذه المدنية متميزة عن اخواتها في جميع شؤون الحياة الانسانية كالملبس والمطعم والآداب والأخلاق واسلوب المعاش وسيرة الأفراد ، واكتساب الرزق وانفاق الأموال ، والحياة الزوجية والعائلية والتقاليد الاجتماعية ،

وآداب المجالس والصور المتنوعة لعلاقة الانسان بالانسان ومعاملات الأخذ والعطاء وتقسيم الثروة وتدبير الدولة وتشكيل الحكومة ، ومنزلة الأمير وصورة الشورى وتنظيم المناصب والوظائف في شعب الحكومة المدنية وأصول القوانين واستنباط القواعد التفصيلية من تلك الأصول ، ونظام العدالة والشرطة والاحتساب وجباية الضرائب ، وشعبة الاقتصاد والأشغال العامة ، والصناعة والتجارة ونظام النشر والاعلان والتعليم والتربية ، وتدبير سائر اقلام الحكومة ، وتدريب الجيوش وتنظيمها وشؤون الصلح والحرب والعلاقات الدولية والسياسة الخارجية . في جميع شؤون الحياة من الصغيرة التافهة الى الجليلة الخطيرة تكون هذه المدنية ممتازة بطرقها ومناهجها ، وفي كل جزء من أجزاء تلك الشؤون تميزها عن غيرها حدود مبينة معلومة ، وتكون من وراء كل أمر من أمورها وجهة نظرة خاصة ومقصد بعينه وسلوك خلقي من الطراز الخاص ، يستمد كل ذلك من حقائق ثلاث . هي كون الله الواحد حاكماً وكون الانسان محكوماً ومسؤولاً وكون الأخرى هي المقصود دون الدنيا .

نوعية عمل النبي :

ولتشييد هذه الحضارة والمدنية في الأرض ارسل الله تعالى رسله تترى . ذلك بأن كل حضارة في هذا العالم ـ عدا الحضارة الرهبانية ـ جاهلية كانت ام اسلامية ، اذا كانت بيدها نظرية جامعة بشأن الحياة الانسانية ومنهاج شامل لتدبير أمور هذه

الدنيا فانها تقتضي بحكم طبيعتها ان تستولي على الحكم وتمتلك أزمة الأمور وتشكل الحياة الانسانية على طرازها المخصوص. وبدون إرادة الحكم لا معنى للدعوة الى نظرية ما ولا معنى للتحليل والتحريم والتشريع. اما الراهب في هذه الدنيا فلا يريد ان يمارس شؤونها وانما همه الشاغل ان يبلغ غاية نجاته الوهمية بسلوك طريقة معينة تمر به حائدة عن الدنيا وما فيها، ولذلك لا يحتاج الى السلطة والحكم ولا يطلب من ذلك شيئاً. ولكن الذي يأتي داعياً الى طريق مخصوص لمعالجة شؤون هذه الدنيا ويعتقد أن في اتباع الانسان لهذا الطريق فلاحه ونجاته، فلا بد له من ان يسعى ويجتهد لاحراز مقاليد السلطة والحكم، فانه ما لم يتمكن من القوة المطلوبة لتنفيذ طريقته المخصوصة، لا يمكن ان تقوم لها قائمة في عالم الواقع، بل يستحيل ان تبقى آثارها طويلاً في بطون الكتب أو في رؤوس الناس. والواقع الذي لا يرد ان الحضارة التي تكون مالكة لازمة الأمور هي التي تجري شؤون العالم تبعاً لطرقها ومناهجها وهي التي تعين وجهة العلوم والافكار وتحدد مجرى الفنون والآداب، وتضع أصول الأخلاق وتنظيم التربية والتعليم وعلى قواعدها ينهض نظام المدنية باسره. ولا تنفذ الا خطتها هي في جميع شعب الحياة. وبذلك لا يكون من موضع ولا متسع في الحياة الدنيا لحضارة لا تستند الى سلطان الحكم. بل ان الحق انه سنح للحضارة الحاكمة ان تطول غلبتها على البلاد فان الحضارة المنعزلة عن الحكم تعود في الواقع والعمل كلا شيء، ويعود حتى المتحمسين لها انفسهم

يشكون في كون طريقها ومذاهبها قابلة للعمل بها في الحياة الدنيا . ويأتي حتى المنتحلين لزعامتها والمتظاهرين بحمل رايتها أنفسهم يدارون الحضارة المعادية ويبايعونها على الشركة والمساهمة . والحال ان المسالمة بين حضارتين تختلف مبادؤها وتتناقض اصولهما محال جداً واشتراكهما في تصرفات الحكومة مما لا يمكن ان يكون ابداً . وان المدنية الانسانية لا تتسع لهذه الشركة بين النقيضين . وإذا كان الظن بكون هذا التقسيم بينهما من الممكن الميسور دليلاً على افن الرأي وضعف العقل ، فإن قبوله والرضا به يدل على ضعف الايمان وخور العزيمة .

لأجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة انبياء الله عليهم السلام في هذه الدنيا ان يقيموا فيها الحكومة الاسلامية ، وينفذوا بها ذلك النظام الكامل للحياة الانسانية الذي جاؤوا به من عند الله[1] وهؤلاء كانوا قد يسمحون لأهل الجاهلية بأن يبقوا على عقائدهم السابقة ويتبعوا طرائقهم الجاهلية ما دامت آثار أعمالهم منحصرة في انفسهم ، ولكنهم لم يكونوا ليبيحوا لهم ـ ولا كان يسعهم ذلك طبعاً ـ ان تبقى مقاليد السلطة والحكم بايديهم ليديروا شؤون الحياة الانسانية على قواعد

(١) كثيراً ما نسمع من بعض الشيوخ من اهل الدين ان الحكمة ليس بشيء يقصد ويرام ، بل هي امر موعود وعده المتقون والحق ان الذين يقولون بذلك انما ينظرون الى الحكومة كأنها جائزة تمنح ، لا واجب يؤدي ووظيفة تتقلد ، ولا يعلمون ان الحكومة التي لا بد منها لاقامة دين الله فعلا في هذه الأرض ، انشاؤها مطلوب في الشريعة الالهية وان الجهاد في سبيلها واجب .

الجاهلية . ولذلك قد سعى كل نبي وكل رسول لاحداث الانقلاب السياسي حيثما بعث . فمنهم من اقتصرت مساعيه على تمهيد السبيل واعداد العدد كابراهيم عليه السلام ، ومنهم من أخذ فعلاً في الحركة الانقلابية ولكن انتهت رسالته قبل ان تقوم على يده الحكومة الالهية ، كعيسى عليه السلام . ومنهم من بلغ بهذه الحركة منازل الفوز والنجاح كموسى عليه السلام وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا استعرضنا العمل الذي قام به جميع الانبياء عليهم السلام ونظرنا فيه جملة ، رأينا ان نوعية هذا العمل حسب ما يأتي :

أولاً : ان يحدث الانقلاب الفكري والنظري في عامة بني آدم ويشربوا في قلوبهم وجهة نظرة الاسلام واسلوبه الفكري وسلوكه الخلقي بحيث يعودون في طريق تفكيرهم ومقصد حياتهم ومنهج عملهم وميزانهم لقيم الأشياء واقدارها متطبعين بطابع الاسلام .

وثانياً : ان تؤلف جماعة محكمة التركيب ممن يخضعون لتأثير هذا التعليم والتربية . ويبذل الجهد المستطاع لانتزاع السلطة والحكم من أيدي الجاهلية ، ويستخدم في هذا الجهد والسعي كل ما يوجد في المدنية الرائجة من الوسائل .

وثالثاً : ان يقام نظام الحكم الاسلامي فتنظم شعب المدنية بأجمعها على الأسس الاسلامية الخالصة ، ثم يتخذ من التدابير ما

يوسع به نطاق الانقلاب الاسلامي في اقطار الأرض ، وان يربى كل داخل في الجماعة الاسلامية من طريق الدعوة أو الميراث تربية عقلية وخلقية على الطراز الاسلامي الخالص .

الخلافة الراشدة :

كل هذا العمل أتمه خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ثم قدر الله للأمة زعيمين كِفْأين ـ أبا بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما ـ واصلا عمله صلى الله عليه وسلم كاملاً بجميع شعبه ونواحيه ، ثم انتقل الأمر بعدهما الى سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وبقي على ما أقامه عليه النبي صلى الله عليه وسلم الى عدة من السنين في صدر ذلك العهد .

وثبة الجاهلية :

ولكن امر الخلافة الى السعة والتقدم على مضي الايام تبعاً لاتساع رقعة الحكومة الاسلامية بسرعة والخليفة الثالث الذي القي على عاتقه عبء هذا العمل الجليل كان لا يتصف بتلك الخصائص التي أوتيها العظيمان اللذان سبقاه[1]. فوجدت الجاهلية سبيلها الى النظام الجماعي الاسلامي وان تيارها الجارف وان

---

(١) قد جاء بعض افاضلنا المحترمين للافتاء يستنبطون من جملتنا هذه معنى النيل من قدر سيدنا عثمان رضي الله عنه والحق اني لم اقصد بها سوى ان عثمان رضي الله عنه كان ينقصه بعض تلك الصفات اللازمة للحكم والأمر ـ التي كانت على اتمها واكملها في سيدنا ابي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما . هذه مسألة تاريخية يجوز للباحثين في التاريخ ان يأتوا فيها بآراء مختلفة . وليست بمسألة كلامية او فقهية حتى يصدر اهل الافتاء آراءهم بشكل الفتاوي .

حاول عثمان رضي الله عنه سده ببذل نفسه ومهجته ، الا انه لم ينكفىء . ثم خلفه علي كرم الله وجهه واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة وصيانة السلطة السياسية في الاسلام من تمكن الجاهلية منها ، ولكنه لم يستطع ان يدفع هذا الانقلاب الرجعي المركوس حتى ببذل نفسه فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوة وحل محلها الملك العضوض(Tyrant Kingdom)وبدأ الحكم والسلطة يقوم على قواعد الجاهلية بدلاً من قواعد الاسلام .

ولما أصبح الحكم الى الجاهلية جعلت عدواها تسري الى الحياة الاجتماعية وتدب فيها دبيب السرطان في جسم الحي ولا غرو فقد كانت مقاليد السلطة بيدها لا بيد الاسلام . وكان الاسلام بعد ان فقد قوة الحكم لا يمكنه ان يمنع اثرها من النفوذ وسلطانها من الامتداد . وآفة الآفات ان الجاهلية لم تمثل بين يدي القوم في حقيقتها العارية المكشوفة بل واجهت الناس لابسة قناع الاسلام ملونة بلونه . ولو كان إزاء الاسلام قيم من الملاحدة والكفار والمشركين الصرحاء لهان الخطب وسهل الكفاح ، ولكنهم كانوا قوماً كانت علانيتهم الاقرار بالتوحيد والايمان بالرسالة والمحافظة على الفرائض والاستشهاد بكتاب الله وسنة الرسول وفي باطن امرهم كانت الجاهلية تعمل عملها من وراء حجاب . وإذا اجتمعت الجاهلية والاسلام على هذا الوجه في كائن واحد فلا بد ان تحدث المشكلات والمعضلات التي معالجتها اصعب وأشق ألف مرة من مقاومة الجاهلية المحض . فانك ان قمت تحارب الجاهلية الصريحة ، التف من حولك مئات

الألوف من المجاهدين المسلمين ينصرونك عليها . ولم يتجرأ احد من المسلمين ان يساعدها علنا . ولكنك ان خرجت تحارب هذا النوع الممزوج من الجاهلية والاسلام لم يستعد للذب عنها المنافقون وحدهم ، بل انبرى للأمر كثير من المسلمين الخلص اقبلوا عليك يلومونك ويتهمونك . ومن الحق لعمر الله ان اعتلاء (المسلم) سرير الحكم الجاهلي وتقلده زعامة السياسة الجاهلية . وان شغل (المسلم) وظيفة المعلم في معهد التعليم الجاهلي وتولية مشيخة الجاهلية ، لخدعة خادعة قل من يسلم من الوقوع بحبائلها .

وكان اشدّ وأخطر ما في هذا الانقلاب المركوس ان جاءت الجاهلية بأنواعها الثلاثة لابسة لباس الاسلام وجعلت تتأصل في المجتمع العربي الاسلامي وتتمشى فيه وغدت آثارها تزداد انتشاراً على مرور الأيام .

فأمَّا الجاهلية المحضة فعمدت إلى الدولة والحكومة فهيمنت عليهما وانقلبت الخلافة قيصرية جاء الاسلام يقطع دابرها . ولم يبق فيها من الخلافة إلا اسمها . ولما كان اعتقاد الالوهية للملوك لم يعد يتجاسر عليه احد فاحتالوا بأخذهم بالأثر المرويّ : السلطان ظل الله[1] وتبوأ الملوك والأمراء بهذه الحيلة منزلة المطاع

---

(١) لا شك أن هذه الكلمات قد وردت في الأثر . ولكن الناس قد حملوها على المعنى المخطىء . «السلطان في لغة العرب معناه الأصلي : السلطة والسيطرة ولا يستعمل هذا اللفظ لصاحب السلطة إلا مجازاً . وكذلك لم يستعمله النبي صلى الله عليه وسلم إلا بمعناه الأصلي دون المجازي . والمرد بقوله صلى الله عليه وسلم ان الحكم

المطلق التي هي خاصة للاله . واسترسل الامراء والحكام والولاة ورجال الجيش والمترفون الى الجاهلية المحضة في ظل هذه الملكية . وتأثرت حياتهم - في قليل أو كثير - بوجهة نظرها وفسدت اخلاقهم ومعيشتهم بعاهتها وكان من الطبيعي ان يصحب ذلك كله رواج فلسفة الجاهلية وآدابها وفنونها ، فتدوّن العلوم والمعارف على طرازها . لأن كل هذه الأمور يتطلب رعاية الدولة وإشراف الحكومة . ولما كانت هاتان تحت استيلاء الجاهلية فلم يكن بد من استيلائها أيضاً على تلك الامور. ومن هنا تطرقت فلسفة اليونان والعجم وعلومهما وآدابهما إلى المجتمع المنتمي إلى الاسلام وبفعل هذه العلوم والآداب أخذ المسلمون يشتغلون بالبحث في المسائل الكلامية ونشأ مذهب الاعتزال ونجم قرن الزندقة والالحاد وجاء التفنن المفرط في تعليل العقائد وتحليلها يحدث في المسلمين فرقاً جديدة . ولم يقف الامر عند هذا الحدّ بل عادت الفنون الجاهلية الخالصة كالرقص والموسيقا والتصوير تحل محل العناية والتقدير من الشعوب التي قد كان الاسلام كفاها شرّ هذه المفاسد[1].

والسلطة في الحقيقة ظل من سلطة الله وهيمنته فكل من وقع عليه هذا الظل إذا رعى حرمته وراقب حقه فحكم الناس بالحق والنصفة اعزه الله تعالى وأكرمه . واذا استهان بامره وساس الناس بالظلم واتباع الشهوات أهانه الله . ولكنهم حرفوا معاني هذا القول الحكيم وجعلوا الملك ظل الله واتخذوه أساساً لعبادة الملوك . على غير ما اراده النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) ومن العجيب العجيب أن جاء أمثال العلامة شبلي النعماني والسيد أمير علي في علو فضلهم وعلمهم يعدون هذه الأعمال العظام التي جاء بها الملوك ، في خدمتهم الجليلة للحضارة اللدنية الأسلامية .

وأما جاهلية الشرك فوثبت على عامة الناس وعدلت بهم عن جادة التوحيد الى ملاوي الضلال المتشعبة ، وان المسلمين وان لم يرجعوا الى الوثنية الصريحة إلا انه لم تبق صورة من صور الشرك لم ترج في مجتمعهم رواجاً . وكان من دخل في الاسلام من افراد الامم القديمة جاؤوا يجرون معهم كثيراً من تصورات الشرك وتقاليده الى المجتمع الاسلامي . وهناك لما ارادوا ما تعوّدوه من عبادة غير الله لم يتكلفون غير ان يلتمسوا لهم في أكابر المسلمين وأوليائهم آلهة لهم بدلاً من آلهتهم السالفة ، ويستبدلوا بمعاهدهم القديمة قبور الأولياء واضرحتهم ويبتكروا التقاليد الجديدة مكان تقاليدهم السابقة . وكذلك ساعدهم عليه علماء المسلمين من عباد الدنيا ، من حيث ازاحوا عن طريقهم كثيراً من العقبات التي كان عسى ان تعترض لهم دون ادخالهم الشرك في الاسلام ، فحرفوا الكلم عن مواضعها بكل وقاحة وأوّلوا آيات الكتاب وأحاديث الرسول على الوجه الذي يسيغ في الاسلام عبادة الأولياء وقبورهم وأخرجوا الكثير من الشرك ورسومه كلمات من المصطلح الاسلامي ، واستحدثوا لشعائر هذه الشريعة المبتدعة صوراً لا ينالها حكم الشرك الصريح . وأنّى للشرك لعمر الله ، لو لم تيسر له هذه المساعدة الفنيّة من قبل العلماء ، ان يحتلّ في الاسلام ذلك المكان المحوط .

واما الجاهلية الرهبانية فاصابت بحملتها العلماء والمشايخ وأهل الورع والزهد وراحت تشيع فيهم المساوي التي قد أشرت اليها آنفاً - ومن جرّاء هذه الجاهلية فشا في المجتمع الاسلامي

ما فشا من الفلسفة الاشراقية ونظام الاخلاق الرهباني ، وجهة النظر القنوطية في جميع مناحي الحياة ، ولم يمس كل ذلك فنون الأدب والمعارف فحسب ، بل خدّر بأثره العنصر الصالح من المجتمع وفعل في أعصابه فعل المنومات . ثم شدّ أزر نظام الملكية الجاهلية وضرب العلوم والفنون الاسلامية بالعقم والجمود وضيق النظر وجاء يحصر جماع الدين في عدد من الاعمال الدينية المعينة .

الحاجة الى المجدّدين

فكان تطهير الإسلام من ادران هذه الانواع الثلاثة من الجاهلية وجلاء ديباجته من جديد ، هو الأمر الذي أصبح الدين لأجله في حاجة الى المجددين . ولا يذهب بأحد الظن في هذا الصدد أن كانت الجاهلية قد محت آية من الإسلام تماماً وذهبت بآثاره جميعاً وملكت عليه أمره من جميع الوجوه إبان هجومها وطغيانها ، بل الواقع أن الشعوب التي كانت خضعت لتأثير الإسلام حينئذ أو خضعت لها فيما بعد لم يزل باقياً أثر الاصلاح الإسلامي ـ قليلاً أو كثيراً ـ مدى الدهر . ولم يكن إلاَّ من تأثير الإسلام ان كان الآمرون المطلقون من الملوك تأتي عليهم من حياتهم أحيان ترتعد فرائصهم من خشية الله ، فيرجعون عن غيّهم الى الرشد وعن ظلمهم الى الانصاف . وليس الا من ثمرات الإسلام أنك تبصر هنا وهناك في الصفحات السود من تاريخ الملكية لمحات من نور الصلاح والاخلاق الفاضلة . ولم يكن الا من فضل الإسلام ان نبغ في البيوتات الحاكمة رجال مؤمنون

متقون عادلون تولوا الحكم والأمر مع الشعور التام بمسئوليتهم على قدر الامكان ، على كونهم يملكون سلطان الملكية . وكذلك ما زال الاسلام يعم ببركاته وخيراته ـ ولو على وجه غير مباشر ـ قصور الدول والحكومات ومدارس الفلسفة والحكمة ودور التجارة والصناعة وزوايا الخلوة والاعتكاف وسائر شعب الحياة ، واستمرّ نفوذه في العامّة على رغم أنف جاهلية الشرك التي كانت فاشية فيهم ، وبقي يؤثر في عقائدهم وأخلاقهم واجتماعهم من جهتي الأمر والنهي والتوجيه والتحذير ، ومن كل ذلك ظل مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائماً من أخلاق سائر الأمم . وفوق ذلك كلّه ما خلا عصر من العصور من أناس استمسكوا بعروة الإسلام وبقوا يسعون في إحياء هدايته العلمية والعملية في حياتهم أنفسهم وفي الحلقة المحدودة الواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم ، بيد ان ذلك كله لم يكن كافياً لتحقيق الغاية الرئيسية التي بعث لأجلها الانبياء عليهم السلام . فكان الإسلام لا يكفيه ان تكون السلطة بيد الجاهلية ويقف الإسلام منها موقف التابع المتخلف ولا كان يكفيه ان يكون هنا وهناك رجال متمسكون بالإسلام في حياتهم الفردية المحدودة ، وتشيع في الحياة الجماعية الواسعة أخلاط شتّى من الجاهلية والإسلام ولذلك كان ـ ولا يزال ـ الدين الإسلامي في كل عصر في حاجة الى رجال أقوياء يأتون ويسددون خطى الزمان ويوجهون مسيره الى الإسلام ، سواء أكان عملهم في ذلك محيطاً شاملاً أو كان على بعض نواحي الأمر مقتصراً ـ وهؤلاء هم الذين يدعون بـ « المجددين » !

نوعيّة عمل التجديد

نريد في الأبواب التالية من هذا الكتاب ان نتناول أعمال مجددي هذه الأمّة المسلمة بالدروس ، ويجمل بنا قبل الخوض في ذلك ان نكون على بصيرة تامة من حقيقة عمل التجديد .

الفرق بين التجدد والتجديد :

قد ألف الناس في زماننا ان لا يفرقوا بين التجدد والتجديد ، فيسمون لسذاجتهم كل متجدد من بينهم مجدداً ، ظناً منهم ان كل من جاء بطريق جديد ثم أمضاه بشيء من القوة والعزم ، فهو المجدد ، ويجودون بهذا اللقب خصوصاً على الذي يبادر الى إصلاح حال الأمة المسلمة من الجهة المادية إذا وجدها إلى التقهقر ، فيخرج بمسالمته للجاهلية الحاكمة في زمانه خلطاً جديداً من الاسلام والجاهلية ، ويصبغ الأمة بصبغ الجاهلية الكامل الذي لا يبقى من خصائصها إلا الاسم . والحال أن أمثال هذا لا يكونون مجددين بل متجددين ، ولا تكون مهمتهم تجديد الدين بل التجدد في الدين ، وشتان ما بينهما . وذلك ان التجديد لا يكون عبارة عن التماس الوسائل لمسالمة الجاهلية ولا

هو عبارة عن إعمال خلط جديد من الاسلام والجاهلية ، بل التجديد في حقيقته هو تنقية الاسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية ، ثم العمل على إحيائه خالصاً محضاً على قدر الامكان . ومن هنا يكون المجدد أبعد ما يكون عن مصالحة الجاهلية ولا يكاد يصبر على ان يرى أثراً من آثارها في أي جزء من الاسلام مهما كان تافهاً ! .

تعريف المجدد :

إن المجدد لا يكون نبياً ، ما في ذلك شك ، ولكنه يكون في طبعه ومزاجه أقرب إلى مزاج النبوة . ومن الخصائص التي لا بد أن يتصف بها المجدد هي : الذهن الصافي ، والبصر النفاذ ، والفكر المستقيم بلا عوج ، والقدرة النادرة على تبين سبيل القصد بين الافراط والتفريط ومراعاة الاعتدال بينهما . والقوة على التفكير المجرد من تأثير الأوضاع الراهنة والعصبيات القديمة الراسخة على طول القرون ، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف ، والأهلية الموهوبة للقيادة والزعامة والكفاءة الفذة للاجتهاد ولأعمال البناء والانشاء ، ثم كونه ـ مع ذلك كله ـ مطمئناً قلبه بتعاليم الاسلام وكونه مسلماً حقاً في وجهة نظره وفهمه وشعوره ، يميّز بين الاسلام والجاهلية حتى في جزئيات الأمور ويبين الحق ويفصله عن ركام المعضلات التي أتت عليها القرون فهذه هي الخصائص التي لا يمكن أن يكون أحد مجدداً بدونها ، وهي هي الصفات التي تكون في الأنبياء والمرسلين مكبرة مضاعفة ! .

الفرق بين المجدد والنبي :

على أن الفارق الأساسي الذي يفرق بين المجدد والنبي ، هو أن النبي يكون مأموراً من عند الله بأمر تشريعي ، ويكون عارفاً بكونه مأموراً من الله ، فيأتيه الوحي ، ويبتدىء بعمله بدعوى النبوة ويدعو الناس إلى نفسه ، وعلى قبول دعواه أو رفضها يتوقف الايمان والكفر . والمجدد بخلاف ذلك لا يكون في شيء من تلك المنزلة ، فلا يكون مأموراً من الله ، وان فرض أنه يكون ، فبأمر لا تشريعي ، وكثيراً ما لا يكون هو نفسه عالماً بكونه مجدداً ، بل يعلم الناس بمكانه ذلك بعد موته عندما يستعرضون مآثره . ولا يلهم المجدد بالضرورة ، وان كان يلهم ، فلا لزام أن يكون على شعور بذلك الالهام . ثم إنه لا يبتدىء عمله بدعوى من الدعاوى . ولا يجوز له ذلك بتة لأن المجدد ، لا يكون أحد مكلفاً بالايمان به . وإنما يجتمع عليه ـ رويداً رويداً ـ كل من يكون فيه البر والصلاح من أهل زمانه ، ولا يبقى بمعزل عنه إلا من كان في طبعه عوج . وعلى كل لا يكون الايمان به شرطاً من شروط الاسلام .[1] وبكل هذا

---

(١) قد يدلي بعض الناس في هذا المقام بشبهة . هي أن بعض المجددين من الامة قد ادعوا كون أنفسهم مجددين . كالشيخ أحمد السرهندي والامام ولي الله الدهلوي . ولكنهم ينسون أن هؤلاء الشيوخ الأفاضل إنما أبدوا عن كونهم متبوئين لمقام المجدد . ولم يقوموا بدعوى من الدعاوى . فلا يتحقق من أي عمل من أعمالهم أنهم دعوا الناس إلى أنفسهم أو طالبوهم بأن يصدقوا بكونهم مجددين أو قالوا أنه لن يكون مؤمناً ولا ينجو في الآخرة إلا من آمن بمنزلتهم تلك .

الفرق بين مقامه ومقام النبي يكون المجدد مكلفاً في الجملة بذلك العمل الذي يشبه في وضعه ونوعيته عمل النبي ! .

عمل التجديد :

ولعل التجديد هذا شعب مختلفة حسبما يلي :

أولاً : تشخيص أمراض البيئة التي يعيش فيها المجدد تشخيصاً صحيحاً ، وذلك أن ينعم النظر في أوضاع زمانه ويتبين مكامن الجاهلية في المجتمع ومبلغ نفوذها منه ، والطرق التي قد سرت منها عدواها اليه ، ويرى : الى أي حدّ قد امتدت آثارها في الحياة ، وما هو موقف الاسلام الصحيح في الاحوال الحاضرة .

ثانياً : تدبير الاصلاح ، وبعبارة أخرى تعيين مواضع الفساد التي يجب أن تعالج بالضرب والشذب في الوقت الحاضر لكي تزول غلبة الجاهلية على المجتمع ، ويتمكن الاسلام من النفوذ في الحياة الاجتماعية .

ثالثاً : اختبار المجدد نفسه وتعيينه حدود عمله ، وتقديره قوته ومقدرته ، واختياره الناحية التي يرى نفسه قادراً على إصلاح الأمر منها .

رابعاً : السعي لاحداث الانقلاب الفكري والنظري ، أي تغيير أفكار الناس وطبع عقائدهم ومشاعرهم ووجهة نظرهم الخلقية بطابع الإسلام ، وإصلاح نظام التعليم والتربية ، وإحياء

العلوم والفنون الإسلامية ، وبالجملة بعث العقلية الإسلامية الخالصة من جديد !

خامساً : محاولة الإصلاح العملي ، وذلك كإبطال التقاليد الجاهلية وتزكية الأخلاق وإشباع النفوس حباً لاتباع الشريعة من جديد ، وترشيح رجال يصلحون أن يكونوا زعماء من الطراز الإسلامي .

سادساً : الاجتهاد في الدين ، والمراد به أن يفهم المجدّد كليّات الدين ويتبيّن إتجاه الأوضاع المدنية والرقي العمراني في عصره ، ويرسم طريقاً لإدخال التغيير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة ، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها ، ويمكن الإسلام من الامامة العالمية في رقي المدنية الصحيح !

سابعاً : الكفاح والدفاع : ومعناه مناضلة القوة السياسية الناهضة لاستئصال الاسلام وكبته ، وبكسر شوكتها ، تمهيد السبيل لنهوض الإسلام وانبعاثه .

ثامناً : إحياء النظام الإسلامي ، وذلك أن تنتزع من أيدي الجاهلية مقاليد السلطة ، وتعاد إقامة الحكم فعلاً على النظام الذي سماه الشارع عليه السلام بالخلافة على منهاج النبوة .

تاسعاً : السعي لإحداث الانقلاب العالمي ومعناه أن لا يكتفي باقامة النظام الإسلامي في قطر واحد أو في الأقطار التي يقطنها المسلمون فحسب ، بل تبعث حركة عالمية قوية

تكفل انتشار الدعوة الإسلامية الإصلاحية والانقلابية في عامة سكان هذه الأرض ، فتكون حضارة الإسلام هي الحضارة الغالبة في الأرض . ويطرأ على نظام التمدن القائم في شرق الأرض وغربها ، الانقلاب من الطراز الاسلامي ، ويتولى الإسلام إمامة العالم ورئاسته في الأخلاق والأفكار والسياسة .

وباجالة النظر في هذه الشعب التجديدية ، يتبين أن الشعب الثلاث المتقدمة منها ، لا محيص عنها لأحد يقوم بمهمة التجديد ، ولكن الشعب الست الباقية لا يشترط للمجدد أن يستوفي جميعها ، وإنما يصح أن نعدّ مجدِّداً كل من يأتي بعمل جليل في احدى تلك الشعب أو الاثنتين أو الثلاث أو الأربع منها . إلا أن مثل هذا المجدد لا يقال له مجدداً كاملاً بل يعرف بمجدد جزئي ، لأن المجدد الكامل لا يكون إلا من يتم عمله في جميع هذه الشعب ويوفي بما عليه من حق الوراثة للنبوة .

مقام المجدد الكامل

وإن النظر في التاريخ الإسلامي يدل على أنه لم يولد في الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الآن . ولا ريب أن كان الخليفة عمر ابن عبد العزيز أوشك أن يبلغ هذه المنزلة السامية إلا أنه عاجلته المنية دون بلوغه الغاية في مسعاه . والذين جاؤوا بعده من المجددين قام كل منهم بعمل التجديد في شعبة بعينها أو بضع شعب من الدين لا غير ، ولذلك لا يزال موضع المجدد الكامل المستوفي الشروط غير مشغول بعد . ولكن العقل والطبيعة وسير الأحوال ، كل ذلك يقتضي ويتطلب أن يظهر مثل هذا

« الزعيم » فيجدد الدين في شعبه ومن جميع نواحيه ، سواء كان ظهوره في هذا الزمان أو بعد ألف دورة من دورات الحدثان . وذلك هو الزعيم الذي يعرف بالامام المهدي ، والذي جاء الحديث النبوي بنبوآت واضحة فيه[1].

والناس في هذا العصر عندما يسمعون اسم هذا الرجل المنتظر ، تأخذهم هزّة العجب منه والاستنكار له لجهلهم ،

---

(١) هذه النبوآت وان كثر ورودها في كتب : مسلم والترمذي وابن ماجة والمستدرك إلا أنه لا يخلو من الفائدة أن نثبت ههنا الرواية التي جاء بها الشاطبي في (الموافقات) والشيخ اسماعيل الشهيد في (منصب الامامة) وهي هذه :

ان أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله .

ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله .

ثم يكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جل جلاله .

ثم يكون ملكاً جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله .

ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ويلقي الاسلام بجرانه في الارض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الارض . لا تدع السماء من قطر الا صبته مدراراً ولا تدع الارض من نباتها وبركاتها شيئاً الا أخرجته .

لا أكاد أحكم ما هي درجة هذه الرواية من جهة الاسناد ، ولكن لا شك في أنها جاءت مطابقة في معانيها لجميع ما ورد من هذا القبيل في كتب الحديث . وقد أشير فيها الى خمسة أدوار في التاريخ : ثلاثة منها قد مضت الى الآن . والدور الرابع نجتازه في هذه الآونة . وأما الدور الخامس الذي جاء نبوءة في هذه الرواية ، فتدل جميع القرائن أن التاريخ لا يزال يسرع اليه من حيث قد جربت الانسانية جميع النظم التي قد وضعها الانسان بنفسه فوجدتها نكدة عقيماً ، وأصبحت الآن لا محيد لها عن الرجوع الى الاسلام بعد طول السرى وفرط المغوب !

ويشتكون أن المسلمين الجاهلين قد قعد بهم وأضعف قوة عملهم انتظارهم لظهور الرجل الكامل . فمن رأيهم أن الحقيقة التي يخطىء فهمها الجهلاء فيقاعدون عن السعي والعمل لا يصلح أن تعتبر حقيقة أصلا ، ثم من قولهم : إنّ الاعتقاد بمجيء رجل من الغيب لما كان شائعاً عاماً في الأمم الدينية ، فلا يعدوان يكون من باب الاخيلة والأوهام ولكن يا ليت شعري : إذا كان الأنبياء السابقون قد بشروا أممهم ، مثل ما بشر خاتم النبيين ﷺ أمّته ـ بأن الإسلام ليكونن دين العالم كله قبل أن تنتهي فيه حياة النوع الانساني ، وان الإنسان بعدما يجرب خيبة الأنظمة الوضعية ويعاني عواقبها الوخيمة ، يضطر في آخر الأمر إلى ان يفيء الى النظام الذي وضعه الله تعالى للحياة ، وأن هذه النعمة ينالها الإنسان بفضل زعيم جليل القدر يعمل على شاكلة الأنبياء وينفذ الإسلام في صورته الأصلية تنفيذاً كاملاً ... إذا كان الأنبياء بشروا أممهم بذلك ، فأي شيء يستدعي العُجب وأين ذلك من التوهم والخيال ؟ أليس من الممكن أن يكون هذا الخبر في كلام الانبياء قد بلغ سائر الامم في الارض ، وتكون تلك الامم بجهالتها قد أضعفت روحه وأسبلت عليه لباساً فضفاضاً من الاوهام والخرافات .

الامام المهدي

على ان الذين يقولون من المسلمين بظهور الامام المهدي ليسوا أقلّ خطأ في فهمهم وعقيدتهم هذه من المتجددين الذين ينكرون ظهوره . فهم يتصورون ان الامام المهدي سيكون رجلاً من نمط

قدماء المشائخ والصوفية . فلا يسمع به الناس الا وقد ظهر من معهد قديم او خرج من زاوية اعتكاف يصرف السبحة بيده ويتلو الاوراد بلسانه ولا يعتم ان يعلن على الخلق : « أنا المهدي أيها الناس ! » واذا العلماء والمشايخ يهرولون اليه حاملين بأيديهم الكتب والاسفار يقابلون هيئته وهندامه بما ورد فيها من سماته وعلاماته ، فيعرفونه ، ثم تكون البيعة العامة ويتبعها إعلان الجهاد . وهنالك يبادر جميع الدراويش المعتكفين في خلواتهم وكبار الشيوخ من بقية السلف ، فينصرونه وينضوون تحت لوائه . وأما إذا قام الجهاد ووقع القتال ، فلا يستعمل فيه السيف إلا تحلة للقسم ، وإنما تعمل البركة والتصرفات الروحية عملها في المعارك ويحاز الظفر والانتصار بفضل النفثات والأوراد ، حيث لا يرمي المجاهدون بنظرهم الى كافر الا ويخر مغشياً عليه ، ولا يرفعون أيديهم بالدعاء على الاعداء الا وتخور هممهم وتنخر الديدان في طائراتهم ودباباتهم .

فهذا هو مثل تصورات عامة المسلمين في ظهور الإمام المهدي ولكن الذي أفهمه أنا في أمره هو ان الحقيقة على عكس ذلك كله فالذي أقدره وأتصوره ان الإمام المنتظر سيكون زعيماً من الطراز الاحدث في زمانه بصيراً بالعلوم الجديدة بصر المجتهد المطلع ، ويكون جيد الفهم لمسائل الحياة ، ويبرهن للعالمين رجاحة عقله وفكره وبراعة تفكيره السياسي ، وكمال حذقه لفنون الحرب ؛ ويبز كل ابناء زمانه الجدد في تقدمه وارتقائه . وإني لاخشى ان حضرات المشايخ ورجال الدين هؤلاء هم

يكونون اول من يرفع النكير على رجحانه الى الوسائل العصرية وعلى طرقه المحدثة للاصلاح ثم لا أراه سيكون مختلفاً في بنيته وهيئته عن عامة البشر بحيث يعرفه الناس بعلاماته الخاصة وسماته المعلومة كما لا أتوقع انه يعلن بكونه الإمام المهدي ، بل لا استبعد له أن لا يكون هو نفسه عالماً بكونه المهدي الموعود . وإنما يتبين خلق الله بعد موته انه هو المقيم للخلافة على منهاج النبوة المبشر به في الآثار وذلك بأنه ـ كما سبقت لي الإشارة اليه ـ ليس لاحد غير النبي أن يبدأ عمله بدعوى منصبه ولا أحد غير النبي يعلم علم اليقين أيّ وظيفة عهدها اليه الله في هذه الدنيا ، وأن منصب المهدي ليس بشيء يدعى وينتحل بل هو مما يثبت المرء استحقاقه له بعد ان يتحمل تكاليفه . وعندي ان كل من يدعي مثل تلك الدعاوي وكل من يؤمن بهم ويصدقهم ، لا يرى من نفسه إلا ضآلة العلم وتخلف الذهن !

والذي أتصوره من نوعية عمل الإمام المهدي يختلف كل الاختلاف عما يتصوره الناس وذلك اني لا أرى في عمله مجالاً للكرامات والخوارق والكشف والإلهام وأعمال الرياضة الروحية ومجاهدة النفس ، وأعتقد أن المهدي لن تكون له مندوحة عن ان يجتاز من مراحل الجهد والكفاح والسعي الشديد ، ما يضطر إلى اجتيازه كل زعيم انقلابي ، وأن المهدي سينشيء مذهباً جديداً للفكر قائماً على أسس الإسلام الخالص ويقلب عقلية الناس ويبعث حركة قوية تكون ثقافية وسياسية في الوقت الواحد . وستهب في وجهه الجاهلية بجميع قواها

ومقدراتها تعارض دعوته وتقاوم حركته . ولكنه سيوفق آخر الامر للقضاء على سلطتها ، ويشيد دولة الاسلامية موطدة الدعائم تجري في هيكلها ـ بجانب ـ روح الإسلام الخالصة . وبجانب آخر يبلغ رقيها في العلوم التجريبية والطبيعية ذروة الكمال ، مصداقاً لما جاء في الحديث : يرضى عنها ساكن السماء وساكن الارض ، لا تدع السماء من قطر إلا صبته ولا تدع الارض من نباتها وبركاتها شيئاً إلا أخرجته !

فاذا كان رجاؤنا من أن الاسلام لا بد أن يأتي عليه حين من الدهر يسود فيه أفكار العالم ويتغلب على مدنيته وسياسته حقاً لا مترع فيه للريب ، فمن الحتم المقضي كذلك نبوغ هذا الزعيم العظيم الذي يتم في قيادته البارعة الشاملة هذا الانقلاب . فالذين يعجبون لفكرة ظهور امام هداية ورشاد في هذا العالم لم لا يعجبون لما يظهر فيه من أمثال (هتلر) و (لينن) من أئمة الغي والضلال ؟

المجدّدون الجزئيّون ومآثرهم

وقد قدمت مجدد المستقبل الاعظم ذكراً على المجددين الماضين بخلاف النسق التاريخي ، لكيما يقف الناس على مقام المجدد الكامل ومنزلته قبل كل شيء ، فيتسنى لهم ان يقدروا أعمال التجديد الجزئي ويوازنوا بين مقامهما ومرتبتهما . وبين كمال التجديد المطلوب . وها انا ذا آت فيما يلي بعرض للعمل التجديدي الذي قد تم إلى الآن في التاريخ الاسلامي .

عمر بن عبد العزيز

اول مجدد في الاسلام هو الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز[1] ولد في بيت الملك ونشأ في مهد النعمة ولم يبلغ الحلم حتى وجد أباه حاكم ولاية كولاية مصر . ولما ترعرع جعل حاكماً في الدولة الاموية . وكان له ولعشيرته في الاقطاعات التي كان ملوك بني أمية قد بذروها على أقاربهم وعشائرهم نصيب واف ، حتى كان دخل إقطاعه الشخصي يبلغ خمسين ألف دينار كل سنة . فكان يعيش كأهل الثروة والجاه . له من الملبس والمأكل

(١) ولد سنة ٦١ هجرية وتوفي ١٠١ هجرية .

والمركب والمنزل والعادات والخصال ما يكون لابناء الملوك في حكومة ملكية . وكانت بيئته لذلك أبعد ما يكون عن العمل الجليل الذي قام به فيما بعد . على أن أمه أم عاصم كانت بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكن مضى على وفاة النبي ﷺ عند ولادته إلا خمسون سنة . وكان كثير من أصحاب النبي ﷺ والتابعين على قيد الحياة في زمانه . ثم إنه تعلم في صباه الحديث والفقه وتخرج فيهما ، كان يعدّ في الطبقة الاولى من المحدثين ، وفي زمرة أهل الاجتهاد من الفقهاء . لاجل ذلك كله لم يكن من الصعب عليه ان يعرف من الوجهة العلمية : تلك الاصول التي كانت أساس التمدن في عهد النبي ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين المهدّيين ، ويتبين نوعية التغيير الذي أصاب هذه الأصول الجوهرية بتحويل الخلافة ملكية . ولكن الذي عسى ان يعترضه دون مزاولته للاصلاح هو كون أسرته وعشيرته هي نفسها مؤسسة هذا الانقلاب الجاهلي ، وكون هذا الانقلاب الجاهلي تعود كل منافعه وخيراته الكثيرة على اخوته وعشيرته وعلى نفسه وأخلافه . فكانت عصبيته لعائلته وطمعه لذاته وتوفيره لمصالح آله وأعقابه كل ذلك يتقاضاه ويتطلب منه أن يعتلي العرش الملكي كأحد المستبدين الطغاة من الملوك ، ويضحي بنعمة علمه ويخنق صوت خيره في سبيل المنافع المادية البحتة ، ولا يشغل باله بالحق والانصاف والاخلاق والمبادىء . ولكنه لما فاجأه الملك وهو ابن سبع وثلاثين تنبه إلى عظم المسؤولية التي قد وقعت على عاتقه وبدل وضع حياته بغتة وهجر طريقة

الجاهلية الى طريقة الإسلام هجراً لا تردد فيه ولا تأن . يخيل إلى المرء كأنه كان قد وطن نفسه على ذلك من قبل .

كانت مقاليد الحكم وصلت اليه عن طريق الأرث ولكنه لما قام لأخذ بيعته من الناس أعلن لهم : « لقد أعفيتكم من بيعتي يا قوم ! . فاتخذوا من شئتم خليفة لكم من دوني » . لم يتول الخلافة حتى أبدى الناس رضاهم وطيبة أنفسهم بانتخابه .

وما ان أخذ بزمام الأمر حتى ترك أبهة الملك وخيلاءه وأبطل عادات الجبارين الطغاة من الملوك وعزف عن تقاليد مجالس قيصر وكسرى ، وهجر جميع لوازم الملكية وسار سيرة هي أجدر بأن تكون سيرة أمير المؤمنين .

ثم عمد الى الامتيازات التي كانت قد حصلت لأهل بيته ، فنزعها عنهم وأنزلهم من سائر المسلمين من جميع الاعتبارات بمنزلة سواء ، وأعاد إلى بيت المال جميع ما كان تحت يده وتحت يد البيت الملكي من الاقطاعات . وردّ على الذين كانوا غصبوا أراضيهم وأملاكهم كل ما كانوا غصبوه ظلماً ، وقد يقدر عظم الخسارة التي نالته هو نفسه من هذا التغيير في خطة الحكم من أن إيراده السنوي هبط من خمسين ألف دينار إلى مائتين فقط . وحرم على نفسه وعلى أهل بيته وعشيرته أموال بيت المال . حتى لم يأخذ منه مرتب الخلافة الذي هو له مباح ! وبالجملة بدل وضع حياته تبديلاً كاملاً ، وبينما كان يعيش قبل خلافته عيشة

الملوك والأمراء . اذ أصبح يحيا بعدها حياة العادمين والفقراء[1].

وبعد إصلاحه هذا لبيته وأسرته أقبل على نظام الحكم ، فعزل الولاة الظالمين وطلب لمنصب الولاية أهل الورع والصلاح . وأخذ بناصية العمال الذين كانوا قد انطلقوا من عقال الضابط والقانون وأصبحوا يتصرفون في أنفس الرعية وأموالهم وأعراضهم تصرف الآمر الذي لا حد لسلطانه . فقيدهم بقيود الشرع وأقام الحكم على دعامة القانون . وقلب الخطة تماماً في ضرب الضرائب ، ألغى كل ضريبة كان ضربها ملوك بني أمية بغير حق ومن جملتها أتاوة الري ! وأصلح نظام تحصيل الزكاة من جديد . وجعل كل ما في بيت المال وقفاً على مصالح المسلمين ومرافقهم ، وتدارك ما كان عومل به غير المسلمين من الرعايا من معاملة الحيف والظلم ، وأرجع اليهم معابدهم التي كان المسلمون قد اعتدوا عليها ، ورد اليهم جميع أراضيهم التي كانوا غصبوها ظلماً ، ووفر لهم جميع ما تعطيهم الشريعة من الحقوق ، ثم خلص القضاء من تدخل السلطة التنفيذية ، وأصلح أمر الحكم بين الناس ، وطهر روحه وقانونه من سيئات آثار النظام الملكي ، وأقامها على مبادىء الإسلام الخالصة وبذلك كله انبعث على يد هذا الخليفة الصالح نظام الحكم الإسلامي عوداً على بدء !

ثم إنه صرف عنايته الى عامة الناس ، فجعل يستخدم

(١) قد روى أصحاب السير ان عمر بن عبد العزيز كان لا يروقه قبل خلافته مطرف خز فاخر يساوي الف درهم . ولكنه بعد تولي الخلافة كان يستكثر لنفسه كساء ثمنه خمسة دراهم .

سلطته السياسية في تطهير حياتهم الفكرية والخلقية والاجتماعية من آثار الجاهلية التي كانت قد انتشرت في حياتهم الاجتماعية تحت ظل الحكم الجاهلي الممتد على نصف قرن . فمنع إشاعة العقائد الفاسدة ومهد الأمور لتعليم عامة الرعايا على نطاق واسع ورد عناية أهل العلم والفكر الى علوم القرآن والحديث والفقه وبعث بذلك حركة علمية مباركة أنتجت للاسلام أئمة نوابغ من نمط أبي حنيفة ومالك الشافعي وأحمد بن حنبل . وجدّد روح اتباع الشريعة وقمع جميع المعاصي التي كانت وليدة النظام الملكي ، كشرب الخمر ومزاولة التصوير ، والاسترسال في اللهو والمجون وبالجملة حقق الغاية التي يريد الاسلام ان يقيم لأجلها حكومة وهي كما جاءت في القرآن : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) .

ولم يمض الا قليل حتى جعلت آثارها هذا الانقلاب الواقع في نظام الحكم تتحق في حياة العامة وفي الأوضاع الدولية . فقال أحد الرواة : ان الناس كانوا يلتقون في زمان الوليد فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع والرياض . ولما كانوا في عهد سليمان بن عبد الملك أصبحوا يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وردت الليلة وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم وما تصوم من الشهر . وكان من تأثير حكمه الصالح في غير المسلمين من رعاياه ان دخل منهم الوف مؤلفة في الإسلام خلال

هذه المدة اليسيرة ، وانحط دخل الجزية فجأة الى حد ان جعلت تتأثر به موارد الحكومة . ثم انه دعا الى الإسلام ما جاورت الدولة الإسلامية من الولايات غير المسلمة ، فأسلم غير قليل منها . وكان أكبر الممالك المعادية للدولة الإسلامية حينذاك : مملكة الروم ، التي كانت الحرب بينها وبين الدولة الإسلامية مستمرة منذ قرون وكان النزاع السياسي بينهما قائماً حتى في تلك الآونة . ولكن هذه المملكة أيضا لم تفتها آثار هذا الخليفة العادل ، بل فعلت فيها أخلاقه وخصاله ما جعل قيصر الروم يقول عندما بلغه نعي الخليفة : لا أعجب من راهب يعتزل الدنيا ويغلق على نفسه أبوابها وينقطع للعبادة ، ولكني أعجب حقاً ممن كانت الدنيا بين ذراعيه ، ثم أعرض عنها وركلها برجليه ، واختار لنفسه عيشة الفقراء .

هذا المجدد الإسلامي الأول لم يتح له من فرصة العمل الا سنتان ونصف سنة . ولكنه تمكن في هذه المدة القليلة من إحداث مثل هذا الانقلاب الخطير ، الا ان بني أمية لم يرضهم عمله هذا فحقدوا عليه وناصبوه العداوة ، ولا غرو ، فقد كان في ازدهار الإسلام بوارهم وفي حياته موتهم ، ولم يكونوا ليستطيعوا صبراً على عمل يراد به تجديد الاسلام . فأتمَروا به ودسوا له السم حتى مات هذا الخادم الجليل من خدمة الدين والملة في السنة التاسعة والثلاثين من عمره . ان عمل التجديد الذي كان قد أخذ فيه هذا الخليفة المصلح لم يكن ينقصه لاستكماله غير إلغاء طريقة الحكم الوراثي وإعادة نظام انتخاب

الخلفاء مكانها . وهذا الاصلاح كان نصب عينيه ومطمح بصره ، وقد كان أبدى عما في نفسه من هذا الأمر ولكن قلع شأفة السلطة الاموية من المجتمع وإعداد عامة المسلمين وتربية أفكارهم وأذهانهم للنهوض بأعباء الخلافة الراشدة لم يكن من السهولة واليسر بحيث يمكن ان يتم في مدة ثلاثين شهراً .

الائمة الاربعة[1]

إن مقاليد السلطة السياسية انتقلت بعد وفاة عمر بن عبد العزيز من الإسلام إلى الجاهلية مرة أخرى ، ومن الوجهة السياسية ذهب كل ما قام به من العمل الجليل أدراج الرياح ، إلا ان الوعي الذي بعثه في العقلية الإسلامية ، والحركة العلمية التي استحثها في المسلمين لم يمنعهما شيء من النمو والاثمار . ومهما حاول بنو أمية وبنو العباس ان يحولوا بين هذه الحركة وبين مضيها إلى الأمام ، تارة بسيفهم وسياطهم وأخرى بدرهمهم ودينارهم ، لم يستطيعوا أن يضعوا في وجهها شيئاً . وتم بفضل هذه الحركة المباركة عمل وأي عمل بصدد التحقيق في علوم القرآن والسنة وفي ناحيتي الاجتهاد والتدوين ، من حيث استخرجت من أصول الدين صورة تفصيلية لقوانين الاسلام ودون كل ما دعت الحاجة اليه ، لادارة نظام أوسع للمدنية على

---

(١) ١ ـ الامام أبو حنيفة ٨٠ ـ ١٥٠ هجرية .
٢ ـ الامام مالك بن أنس ٩٥ ـ ١٧٥ هجرية .
٣ ـ الامام الشافعي ١٥٠ ـ ٢٠٤ هجرية .
٤ ـ الامام أحمد بن حنبل ١٦٤ ـ ٢٤١ هجرية .

الطراز الإسلامي من القواعد ومنهاج العمل بجميع فروعها وجزئياتها . واستمر هذا النشاط العلمي بكل قوة وحياة من بدء القرن الثاني للهجرة إلى القرن الرابع .

فالمجددون لهذه الأعصر العلمية هم الأئمة الأربعة الذين تنتمي اليهم اليوم مذاهب الفقة الأربعة في المسلمين ولا ريب أن الاجتهاد تعاطاه كثيرون من غيرهم أيضاً ، ولكن الذي سما بمرتبة هؤلاء الأربعة عن مرتبة سائر المجتهدين وبوأهم مقام المجددين ، نفصله فيما يلي :

أولاً : إن هؤلاء العباقرة أوجدوا ببصرهم النفاذ وذكائهم الفذ وفطنتهم النادرة مذاهب للفكر بقيت بقوتها وأصالتها تنجب المجتهدين في الأمة المسلمة الى سبع قرون او ثمانية . ووضعوا لاستنباط المسائل الجزئية والفرعية من كليات الدين ، ولتطبيق مبادىء الشرع على مسائل الحياة العملية طرقاً واسعة شاملة ، كانت هي المرجع والمأخذ في كل ما حصل فيما بعد من عمل الاجتهاد ولا غنى عن مراجعتها كذلك في كل ما سيزاول من ذلك في الزمان الآتي .

ثانياً : انهم اضطلعوا بعبء العمل الجليل بدون اي مساعدة من نظام الحكم الملكي وعلى جياد من تدخله بل على رغم حيلولته بينه وبينهم ، ولاقوا في هذه السبيل من المشاق ما تقشعرّ لتصوره الجلود فالامام أبو حنيفة ابتلي بالجلد والحبس في عهدي الأمويين والعباسيين حتى أهلك بالسمّ . والامام مالك بن أنس ضرب في زمان المنصور العباسي سبعين سوطا وشدت يداه

شداً فكك أحد رسغيه . والامام أحمد بن حنبل بقي رمية الشدائد والمصائب في زمن كل من المأمون والمعتصم والواثق وأصيب بضربات ـ قيل ـ لو ضربها الفيل لهدّته . ثم امتحن في زمان المتوكل بمدرار من الانعام الملكي والتعظيم والتجلة والاحترام جعله يصيح « هذا أمرّ وأشد علي من ذلك » . ولكن هؤلاء المجاهدين الغيُر ، على رغم ذلك كله ، لم يمكنوا التأثير والنفوذ الملكي من التطرق الى تدوين العلوم وترتيبها ، لا في زمنهم فحسب ، بل مهدوا الأمر لذلك تمهيداً ضمن لكل ما حصل بعدهم من عمل الاجتهاد والتدوين السلامة من تدخل الملوك . وليس إلا من ثمرات مساعيهم ان كل ما قد وصل الينا اليوم من الذخيرة الموثوق بها للقوانين الاسلامية والكنز المأمون لعلوم القرآن والسنة لم تشبُه أدنى شائبة من شوائب الجاهلية . وقد انتقلت هذه الآثار العملية جيلاً بعد جيل وطبقة بعد طبقة بسلامة وأمانة وصفاء جعلها بنجوة من أوساخ الاوضاع المحيطة بها ، فلا نكاد اليوم نجد عليها أثراً من آثار ما عم وساد في تلك القرون من بغي الملوك ومعاصي الأمراء وانحطاط العامة الخلقي وضلالهم الاعتقادي والاجتماعي كأن ذلك كله كان بالنسبة لهذه العلوم والآثار شيئاً معدوماً لا وجود له .

الامام الغزالي

انتقلت أزمَّة السياسة والحكومة بعد عمر بن عبد العزيز إلى أيدي الجاهلية للأبد . فقامت سلطة بني أمية فبني العباس فالملوك الأتراك . والذي جاءت به هذه الحكومات من الاعمال

والخدمات ، يتلخص في أنها استوردت فلسفات اليونان والروم والعجم وأشاعتها بين المسلمين على صورتها التي كانت عليها . وبجانب آخر نشرت بقوة الحكم وأموال الدولة ضلالات الجاهلية الاولى وأباطيلها في جميع العلوم والفنون والتمدن والاجتماع . ومما زاد الحال سوءاً من جراء انحطاط الدولة العباسية كون الذين حصلت في أيديهم أزمة الحكم بعد « الخلفاء » العباسيين الاوَل لا نصيب لهم من العلوم الدينية ، حتى ولا يصلحون لان ينتخبوا أهل الكفاءة والجدارة لمناصب القضاء والافتاء فكانوا لجهلهم وتساهلهم يريدون أن يجرو الاحكام الشرعية في مملكتهم على مناهج مقررة معلومة لا يضطر معها إلى شيء من كد الروية وكدح التفكير . ولم يكن أصلح لذلك ولا أوصل اليه من طريق التقليد الجامد ، فاتبعوه وعضوا عليه بالنواجذ . ثم إن هؤلاء الملوك أغراهم علماء السوء من طلاب الدنيا بالمناظرات في المسائل الدينية . ففشت هذه السيئة في كنف الملكية فشواً أفضى إلى تفريق الكلمة والتحزب والجدال والصراع في بلاد الإسلام . وهذه المناظرات التي إنما اتخذها الملوك والامراء ملهى ومسلاة وتشغلوا بها كشغلهم بصراع الديكة والطيور ، أورثت المسلمين الفرقة والشتات وفعلت بوحدتهم الدينية فعل المنجل بالزرع . ولما دخل القرن الخامس آلت الحال إلى أن :

١ ـ تزعزعت العقائد بشيوع الفلسفة اليونانية . ولما لم يكن المحدثون والفقهاء على نصيب من العلوم العقلية لم يكونوا يستطيعون أن يفهموا الناس نظام الدين الإسلامي باسلوب عقلي

مقنع حسب مقتضيات زمانهم ، فكانوا يلجأون لقمع ضلالهم في العقائد إلى الزجر والتوبيخ . وأما الذين ذاع صيتهم بحذق العلوم العقلية ، فلم يكن لهم بصر لا في العلوم الدينية فحسب بل في العلوم العقلية أيضاً ، ولم يكونوا يطلغون عليها اطلاع المجتهد ، بل كانوا يقلدون فيها فلاسفة اليونان تقليداً أعمى ، ولم يكن فيهم ذو نظر دقيق ، يستعرض كتب اليونان وآثارهم وينظر فيها نظر الناقد المتبصر . فآمنوا بكل ما جاءهم من اليونان كأنه تنزيل من حكيم حميد ، وجعلوا يولون الوحي الالهي الحق إخضاعاً له لوحي اليونان وتطبيقاً له عليه . كل ذلك جعل عامة المسلمين يعتبرون دينهم شيئاً لا يوافق العقل ولا يستقيم على النظر . وصاروا يشكون في كل شيء من عقائده وتعاليمه . وظل يرسخ في نفوسهم أن دينهم ــ الاسلامي ــ لا يثبت على محك العقل ويظهر بطلانه لأول احتكَ كه به . وهذا الضلال الفكري حاول الإمام أبو الحسن الأشعري وأتباعه أن يصرفوا تياره عن المسلمين ، ولكن هذه الفئة وإن كانت بارعة في علوم المتكلمين ، لم تكن عارفة بأسرار المعقولات ولذلك لم توفق كل التوفيق في إنقاذ المسلمين من الانسياق في هذا الانحلال الاعتقادي ، بل التزمت ــ تعقباً على المعتزلة ــ أموراً لم تكن في الواقع من عقائد الدين .

٢ ــ ونضب معين الاجتهاد لغلبة الأمراء الجاهلين ولحرمان العلوم الدينية تأييد الوسائل المادية . ففشا التقليد الجامد ونما في المسلمين الخلاف المذهبي نمواً أحدث فيهم فرقاً جديدة حول أتفه

الجزئيات والفروع . ونشأ بين هذه الفرق الكثير من التشاجر والتنازع ما أصبح به المسلمون كأنهم على شفا حفرة من النار .

٣ ـ وطبق الانحطاط الخلقي الممالك الاسلامية من الشرق إلى الغرب ، فلم تنج من أثره طبقة من طبقات الأمة . وخلت حياة المسلمين الاجتماعية من نور القرآن وهدي النبوة إلى حد بعيد . ونسي كل من علمائهم وأمرائهم وعامتهم أن هناك بين ظهرانيهم كتاب الله والسنة النبوية ، يجب أن يرجعوا اليهما ويسترشدوا بهما .

٤ ـ وعادت الرعية على أسوأ ما تكون من الحال بسبب عيشة الترف واللهو التي كانت تعيشها الطبقات الحاكمة والبيوتات الملكية ومن جراء الحروب التي كانت هذه تؤرث نارها لمطامعها الشخصية . وكانت الضرائب المضروبة بغير حق قد بهظت معيشة القوم وكانت جميع العلوم والفنون التي يزدهر بها التّمدن وترتقي الحضارة إلى التخلف والتدهور ، وقد راجت مكانها الفنون والآداب التي كانت موضع العناية والتقدير في المجالس الملكية ، وان كانت مضرة بالاخلاق ومفسدة للمدنية . فكانت صورة الأوضاع واضحة الدلالة على أن قد أزفت الآزفة وحان البوار الشامل .

في هذه الأحوال والظروف ولد الامام الغزالي[1] في منتصف القرن الخامس . وتلقى في بداية أمره تعليما كان حرياً بأن

---

(١) ولد سنة ٤٥٠ هجرية (١٠٥٨م) وتوفي سنة ٥٠٥ هجرية (١١١١م) .

يكسبه السعادة والرقي الدنيوي . وحذق علوماً كانت نافقة سوقها في ذلك الزمن . ثم خرج بهذه البضاعة من العلم والثقافة يقصد دور الحكومة التي كان قد أعدّ لها نفسه . فارتقى الى أعلى ما كان يستطيع أن يتصوره عالم من علماء ذلك العصر من المراتب والمناصب فعُينَ شيخ الجامعة النظامية في بغداد وهي أكبر جامعة في العالم يومئذ ، ونال الحظوة لدى الملوك والأمراء كنظام الملك الطوسي والملك شاه السلجوقي و « خليفة » بغداد . ثم بلغ من تدخله في سياسة عصره أن كان ينتدب لحل ما كان ينشأ بين الحاكم السلجوقي و « الخليفة » العباسي من الخلاف . وبعد ما بلغ هذا المبلغ السامي من الرقي الدنيوي طرأ على حياته بغتة طارىء الانقلاب ، وذلك أنه كلما أمعن في دراسته للحياة العلمية والخلقية والدينية والسياسية والمدنية في عصره ، ازدادت نفسه ثورة عليها ومعاداة لها ، وأهاب به ضميره : « إنك يا أبا حامد لم تخلق للعوم في هذا المستنقع الآسن والتقلب فيه ، بل خلقك الله لواجب آخر غير هذا » . فلبى نداءه ونفض يديه آخر الأمر من جميع الامتيازات والفوائد والمنافع والمشاغل التي كان فيها وآثر الزهد وخرج من بغداد سائحاً في أرض الله . ففكر وتبصر في الخلوات والعزلات ، ثم مشى بين عامة المسلمين فسبر غور حياتهم وبقي مدة من السنين يطهر روحه بطول الرياضة والمجاهدة . غادر الامام بيته في الثامنة والثلاثين من عمره فرجع اليه في الثامنة والأربعين بعد عشر كامل . والذي قام به من العمل بعد هذا

التفكير المتواصل والتامل المطرد والمشاهدة المستمرة أن تاب من التعلق بالملوك ومن قبول عطاياهم ومراتبهم وعاهد الله على تجنب المجادلة والتعصب وأبى العمل في المؤسسات التعليمية الواقعة تحت تأثير الحكومة . وأنشأ في طوس تحت إشرافه داراً مستقلة للتعليم والتدريس . وكان في نيته أن يجلب اليها صفوة من الرجال ليدربهم ويخرجهم على منهجه الخاص . إلا أنه لم يستطع أن يأتي بعمل انقلابي جلل في مسعاه. هذا لانه لم يُمْهله الامل في مواصلة العمل على هذا المنهج المخصوص أكثر من خمس سنوات أو نُهازها .

والعمل التجديدي الذي قام به الامام الغزالي في زمانه نلخصه فيما يلي . ـ

أولاً ـ درس فلسفة اليونان درس المدقق المتبصر . ثم انتقدها انتقاداً لاذعاً خفف من هيبتها وروعتها في نفوس المسلمين . واستجلى الناسُ وجه الحقيقة في النظريات التي كانوا قد سلموا بها كأنها حقائق منزلة من عند الله ، وكانوا لا يرون لسلامة دينهم من سبيل غير أن يطبقوا عليها تعاليم القرآن والسنة . ولم ينحصر أثر نقد الإمام هذا في المماليك الإسلامية ، بل تعداها الى أوربة وفعل هناك أيضاً فعلته في إزالة غلبة الفلسفة اليونانية وفتح باب دور جديد ـ دور النقد الحقيقي العلمي !

وثانياً ـ أصلح الاخطاء التي كان حماة الإسلام ممن لم يكن لهم بصر بالعلوم العقلية لا يزالون يرتكبونها عناداً للفلاسفة والمتكلمين فكان هؤلاء واقعين في ذلك الخطأ الفاحش الذي

وقع فيه قسوس أوربة في الازمان المتأخرة . وذلك أنهم ظنوا الحجة العقلية لبعض العقائد الدينية موقوفة على بعض المفروضات التي لا أصل لها فجعلوها كعقائد الدين الاصلية وغدوا يكفرون كل من لا يُصدق بها كما يكفر من لا يصدق بما دعا اليه الله ورسوله ـ وطفقوا يعدون كل برهان أو تجربة أو مشاهدة تثبت خطأ تلك الأصول الموضوعة المصطنعة خطراً على الدين ، هذا هو الذي آل بأوربا الى الالحاد ، وهذا ما كان آخذاً مجراه بكل شدة في الممالك الإسلامية في زمان الإمام . ولكن الإمام أصلح هذا الغلط في إبان سورنه وأرشد المسلمين إلى أنْ إثبات عقائدهم الدينية لا يتوقف على التزام تلك الأمور التي لا يستسيغها العقل ، بل وراء تلك العقائد حججاً وبراهين يسوغها العقل ويؤيدها المنطق ، فمن العبث ان يلح المرء على تلك التُرهات .

وثالثاً ـ عبر عن عقائد الإسلام وأصوله الأساسية تعبيراً كان لسداده ومعقوليته لا مطعن فيه لطاعن من جهة العلوم العقلية التي كانت موجودة في ذلك العصر أو جاءت في القرون المتعددة بعد ، على الأقل . ثم بيّن الخكمة والسرَّ من وراء أحكام الشرع والعبادات والشعائر وعرض على الناس تصوراً للدين أذهب عن قلوبهم ما كان يوهمهم أن الإسلام لا يستقيم على الاختبار العقلي .

رابعاً ـ استعرض حال جميع الفرق الدينية في عصره وتصفح وجوه اختلافها . ثم بين ـ بالتحقيق ـ حدود الفصل بين الكفر والإسلام ، وبين الحدود التي تكون للمرء الحرية داخلها

في الرأي والتأويل ، والحدود التي يكون تعديه اياها خروجاً من الإسلام وأوضح كذلك عقائد الإسلام الأصلية ونبه إلى الأمور الدخيلة التي دُست فيها . هذا التحقيق والتبيين من الامام وسع وجهة نظر الناس وجرّد الفرق المتخاصمة والمكفرة بعضها بعضاً من معظم أسلحة جدالهم ونزاعهم .

وخامساً جدد في الناس الفهم الصحيح في الدين وجعل من العبث إيمان المرء وتدينه بدون شعور واشتدْ في مخالفته للتقليد الجامد ، ورد عناية الناس إلى مناهل الكتاب والسنة الصافية ، واجتهد لبعث روح الاجتهاد ، وانتقد ضلال كل طائفة من طوائف المسلمين في عصره ، وبين ضعفهم وفتورهم ودعاهم جميعاً إلى الإصلاح .

وسادساً ، انتقد نظام التعليم الذي أكل عليه الدهر وشرب ، واقترح مكانه نظاماً للتعليم جديداً . وكان في النظام القديم الشائع بين المسلمين في عصره عيبان اثنان : أولهما أنه كان يفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا وذلك كان لا محالة يفضي بالناس إلى التفريق بين الدين والدنيا ، وهو باطل البتة في الإسلام . والثاني أنه كان قد دخل فيه باسم العلوم الشرعية أمور لم تكن لها أهمية في الشرع ، فكان من نتيجة ذلك أن تصورات الناس في باب الدين كانت معرضة للخطأ والضلال . وكان التحزب والتعصب ناشئاً فيهم لكون بعض الأمور الداخلية الأجنبية قد حازت الأهمية في الدين بغير حق . فالامام الغزالي محق هذه المفاسد واستبدل بالنظام الفاسد القديم نظاماً متماسكاً جامعاً ،

خالفه فيه كثير من معاصريه بادىء بدء ، ولكن سلم الناس بمبادئه في جميع الممالك المسلمة آخر الأمر ، ولا مغالاة في أن كل ما وضع في الازمان التالية من نظم التعليم الجديدة جاءت متبعة آثار النظام الذي وضعه هذا الامام ، وكذلك ما يعلم اليوم في مدارسنا الدينية من مواد الدراسة لم يرسم خطوطها الاولية الا هذا الامام الجليل .

سابعاً :- درس عامة أخلاق الناس دراسة المتقصي ، وكانت أتيحت له فرص كثيرة لتصفح حياة العلماء والمشايخ والامراء والملوك والعوام . وكان قد ساح بنفسه في آفاق الارض وشاهد معظم العالم الشرقي بأم عينه . وترى خلاصة هذه الاسفار والتجارب والمشاهدات في كتابه « إحياء العلوم » الذي قد انتقد فيه أخلاق كل طبقة من الناس وبحث فيه عن أصل كل سيئة وأسبابها النفسانية والعمرانية ، وحاول عرض المقياس الصحيح للاخلاق في الإسلام .

ثامناً : انتقد نظام الحكم القائم بكل حرية وشجاعة . وظل يستدعي اهتمام الحكام إلى الاصلاح ويحاول ان يبث في عامة الشعب روح الجرأة التي تجعلهم لا يستكينون للعنت والظلم كالعبيد المذللين بل تشجعهم على الاحتجاج عليه بلا خوف ولا حذر . فيقول في موضع من (احياء العلوم) بكل صراحة : « كل أموال الملوك او جلها في زماننا من الحرام » ويقول في موضع آخر : « لا ينبغي ان يُري المرء وجهه هؤلاء الملوك ولا ان يرى وجههم ، ويجب عليه ان يبغض ظلمهم ولا

يحب بقاءهم . ولا يتعلق بأمورهم وأحوالهم ويجانب حتى المتفرجين اليهم » وفي موضع آخر يشدد النكير على اشكال الخضوع والعبودية التي كانت رائجة في مجالس الملوك ، ويذم أسلوب الحياة التي كان يحياها الملوك والأمراء ، حتى يحكم على أزيائهم وزخارفهم وأثاثهم بأنها نجس ، ثم لا يكتفي بذلك بل يكتب إلى ملك زمانه كتابا مفصلا يدعوه فيه الى نظام الحكم على الطراز الاسلامي ، ويبين له كل ما يكون على الملك من تبعات الحكم ومسؤولياته ويعلمه ان كان كل ما هو حاصل في بلاده من الظلم والجور ، سواء أكان منه او من عماله فان مرجعه اليه وعهدته عليه . واضطر الامام ذات مرة الى حضور مجلس ملكي ، فقال للملك وهو يحدثه مواجهاً « لئن لم تبهظ سروجك المذهبة أعناق خيلك فقد بهظت الفاقة أعناق المسلمين » وكتب الى كل واحد ممن عين من الوزراء في آخر زمانه واسترعى نظرهم الى سوء حال الرعية ، فيكتب الى واحد منهم : « قد تجاوز الظلم حدوده ، ولما كنت أرى كل ذلك بعيني ، فقد غادرت طوس منذ نحو سنة ، حتى اتخلص من رؤية حركات الظالمين القساة الوقحين » .

ويؤخذ مما قاله ابن خلدون ان الامام الغزالي كان يرغب حتى في قيام دولة مبنية على المبادىء الاسلامية الخالصة ، في اي صقع كان من اصقاع العالم ، فبايعازه كان احد تلاميذه انشأ في بلاده المغرب الاقصى دولة الموحدين . ولكن هذا اللون السياسي في أعماله ومجهوداته كان في المحل الثاني من الألوان

الأخرى ، والحق ان لم ينشىء الامام حركة منظمة لاحداث الانقلاب السياسي ، ولا هو تمكن من ان يؤثر في نظام الحكومة تأثيراً مهما كان خفيفاً . ولأجل ذلك بقيت الأمم تسوء حالهم يوماً فيوماً تحت حكم الجاهلية ، حتى انقض عليهم التتر كالسيل الآتي بعد قرن من السنين ، وأجحفوا بكل حضارتهم ومدنيتهم .

والعمل التجديدي الذي قام به الامام الغزالي تخللته نقائص من الجهة العلمية والفكرية تقسم على ثلاثة أنواع : نوع منها كان مأتاه ضعف الامام في علم الحديث[1] والنوع الثاني كان منشؤه استيلاء العلوم العقلية على ذهنه . والنوع الثالث وقع في أعماله لميلانه المتطرف الى التصوف .

وان الرجل الذي مضى قدما بعمل الامام الاصلي في بعث روح الإسلام الفكرية وتنقية نظام الفكر ونظام التمدن من أوساخ البدع والضلالات ، متجنباً لتلك النقائص هو الامام ابن تيمية .

ابن تيمية

بعد الغزالي بمائة وست وخمسين سنة ولد في القرن السابع الهجري الامام ابن تيمية[1] وفي زمانه كانت غارات التر قد

(١) قد جمع تاج الدين السبكي في كتابه (طبقات الشافعية) جميع الاحاديث التي قد أوردها الامام الغزالي في (احياء العلوم) . ولا يعلم اسنادها . انظر الجزء الرابع من طبقات الشافعية ص ١٤٥ الى ص ١٨٣ .

(٢) ولد سنة ٦٦١ هجرية (١٢٦٢م) وتوفي سنة ٧٢٨ هجرية (١٣٢٧م) .

دوخت الأمم المسلمة من نهر السند الى الفرات ، وكانوا زاحفين حينئذ الى الشام . وكان المسلمون قد انحطوا الى درك أسفل مما وجدهم عليه الامام الغزالي . لهزائمهم المتواصلة في وجه التتر منذ خمسين سنة ، لحالة الخوف والقلق الملازمة لهم ، وخراب جميع مراكز علمهم وحضارتهم . والمغيرون التتر وان كانوا قد أصبحوا يدخلون في الاسلام ولكنهم كانوا أشد وأرسخ في جاهليتهم ممن سبقهم من ولاة الاتراك . ولما تأثر بهم العامة والعلماء والمشايخ والفقهاء والقضاة جعلت أخلاقهم تهبط وتتردى أكثر من ذي قبل(١) وشاع التقليد الجامد الى حد ان عاد مختلف

---

(١) كان علماء ذلك العصر قد بلغوا من التقهقر ان (هلاكوخان) بعد ان استولى على بغداد استفتى العلماء في السلطان الكافر العادل والسلطان المسلم الجائر ، أيهما أفضل؟ فأفتي بلا حذر ولا حيطة ان السلطان الكافر العادل هو الأفضل ! وكانت حال الأمراء عندئذ ان اكبر دولة كانت بقيت بايدي المسلمين سليمة من غارات التتر وعدوانهم هي دولة المماليك في مصر والشام وهؤلاء المماليك كانوا قسموا قانون دولتهم على قسمين : أحدهما قانون شخصي تنحصر دائرته في أمور النكاح والطلاق والميراث . فكان يفصل فيها بحسب أحكام الشرع . والآخر قانون مدني يحيط بجميع شؤون الناس الداخلة تحت قسمي الحقوق والجنايات . ويسيطر على نظام الدولة كله ، وهو مبني تماماً على الدستور الجنكيزي المتطرف . ذلك الى ان ما كان رائجاً في البلاد من قانون الشرع الشخصي . لم يكن الا لعامة الرعايا . واما المماليك الحاكمون فكانوا يتبعون حتى في امورهم الشخصية القانون الجنكيزي لا الشرع المحمدي ، في أغلب الاحوال . لكي تقدر كيفية سلوكهم المعارض للاسلام حسبك ما رواه المقريزي من ان المماليك كانوا قد أذنوا في قيام دور البغاء في بلادهم مطلقاً ، وكانت ضربت على البغايا ضريبة يودع دخلها بيت مال «الدولة الاسلامية» ».

كان معظم من عاصر الامام ابن تيمية من العلماء والصوفية عالة على هذه

المذاهب الفقهية والكلامية كأنها ديانات برأسها .[1] وأصبح الاجتهاد معصية ، وعادت البدع والخرافات أموراً مستندة الى الشرع ، وصار الرجوع الى الكتاب والسنة ذنبا لا يغتفر . وتكوَّن من العوام الجهلة الضلال ، والعلماء أولي النظر الضيق من طلاب الدنيا ، والملوك الجاهلين الغاشمين في هذا العصر ، اتحاد ثلاثي عجيب ، لم يكن القيام في وجهه لاصلاح الأمر بأهون من مصافحة الموت . ومن ثم ترى انه وان لم يخل ذلك العصر من وجود العلماء ذوي الفكر السليم والنظر الواسع والبصر بحقيقة الامور ، ولا كان يقل فيه عدد الصوفية الراشدين السائرين على جادة الحق ، الا ان الذي اجترأ على رفع راية الاصلاح في ذلك العصر المظلم ، لم يكن الا رجل واحد فذ هو هذا الإمام !

الدولة ، فلم يحز في نفس احد منهم كل هذه النكبة والحال السيئة التي كان فيها الدين الاسلامي . ولكنه لما قام الامام ابن تيمية يسعى للاصلاح أخذتهم الأنفة والحمية بغتة فغدوا يفتون ان هذا الرجل ضال مضل . يقول بالتجسيم والتشبيه . منجرف عن طريقة السلف . عدو للتصوف وأهله . يجرؤ حتى على الصحابة والتابعين بنقده ، ويختلق في الدين اشياء . فلا تجوز خلفه الصلاة . وان كتبه ومؤلفاته لخليقة بأن تحرق .

(١) ويكفيك مثل واحد لأن تتصور هذه الحال وهو أنه كان مؤسس احدى المدارس (هي المدرسة الرواحية) في دمشق قد كتب في صك الوقف ان المدرسة لن يلتحق بها احد من اليهود او النصارى اوالحنابلة . فانظر كيف كانت المناظرات والمناقشات القائمة فيها بين المسلمين حول جزئيات الفقه والكلام قد افضت بهم آخر الامر الى ان كان رجل من الشافعية او الاشعرية لا يتحرج من الحاق متبعي الامام أحمد بن حنبل بأمتي اليهود والنصارى .

كان ابن تيمية إماماً في الحديث ، حتى قيل إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث . وكان من علو كعبه في التفقه ان كان يتبوأ بحق مقام المجتهد المطلق ومن دقته في العلوم العقلية والمنطق والفلسفة والكلام ، ان الماهرين الاخصائيين في تلك العلوم كانوا بين يديه كالناشيء التلميذ بين يدي الجهبذ الخنديد . زد على ذلك جراءته وشجاعته التي كان لا يخالف معها قوة مهما بلغت من الشدة والبأس ، في الجهر بكلمة الحق ، حتى بعث الى السجن مراراً وفيه قضى نحبه آخر الامر . وذلك هو السبب في أنه وفق في توسيع دائرة العمل الذي تركه الامام الغزالي بوجه أحسن وأتم ! . .

أما عمله التجديدي فيتلخص في أنه :

أولا : انتقد المنطق والفلسفة اليونانية انتقاداً أشد وأدق مما فعله الامام الغزالي . وبين عوارها تبيانا خفف من غلبتها على العلوم العقلية الى الابد . هذان الإمامان الجليلان لم تنحصر آثار نقدهما وجرحهما في بلاد الشرق ، بل تجاوزتها الى الغرب أيضاً . وكان من نتائجها ان علا في اوربا اول صدى بقرنين ونصف قرن بعد ابن تيمية ينتقد منطق أرسطو وما عند المتكلمين المسيحيين من نظام الفلسفة المتأثر باليونان .

ثانياً : أقام من الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه ما كان يفوق أدلة الامام الغزالي سوغانا في العقل وأحوى منها لروح الاسلام . وذلك ان كلام الامام الغزالي واستدلاله كانت تغلب عليهما المعقولات الاصطلاحية . ولكن

ابن تيمية اجتنب ذلك وجعل مدار تلقينه وتبيينه على العقل العام ، مما كان ولا شك أدنى الى الفطرة وأقرب إلى طريقة القرآن والسنة . وأكثر تأثيراً في النفوس . وهذا المنهج الجديد كان يختلف عن مناهج السلف . فان الذين كانوا يتعاطون منهم علوم الدين ، كانوا يكتفون برواية الاحكام ولا يستطيعون أن يفهموا فيها السامع ويفقهوه ، والذين كانوا متشبثين منهم بعلم الكلام، كانوا يضيعون روح الكتاب والسنة الأصلية في إفهامهم وتعليمهم ، قليلا أو كثيراً ، لتذرعهم في ذلك بالتفلسف والمعقولات الاصطلاحية . أما ابن تيمية فبين العقائد والاحكام الاسلامية على صورتها التامة الصحيحة وبروحها الحقيقية ثم اختار لافهامه فيها ذلك الاسلوب الفطري الساذج الذي لم يكن يسع العقل إزاءه إلا الخضوع والتسليم . وهذا الصنيع العظيم امتدحه إمام الحديث العلامة الذهبي بقوله : « ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها » .

ثالثاً : لم يجتزىء برفع النكير على التقليد الجامد فحسب ، بل ضرب المثال بمزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين من القرون الاولى ، فتكلم في كثير من المسائل ، مستنبطاً من الكتاب والسنة وآثار الصحابة رأساً ، وحاكما بين مختلف المذاهب الفكرية متحرراً من كل قيد ، مما انفتح به باب الاجتهاد من جديد . وتبين للناس هذا الطريق القويم لاستخدام القوة

الاجتهادية . وبجانب هذا كله جاء هو وتلميذه الجليل ابن القيم بعمل أنيق في بيان حكمة التشريع وطريق تشريع الشارع ، لا نظير له في الكتب الدينية قبلهم . يتضمن المواد التحقيقية التي كانت قدوة حسنى لمن قام بعدهما بعمل الاجتهاد أو سيقوم به فيما يأتي من العصور .

رابعاً : جاهد البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والاخلاق جهاداً قوياً عنيفاً ولاقى في سبيل ذلك أعظم المصائب . ولم يغادر شائبة من الشوائب التي كانت كدرت صفو المعين الاسلامي ، حتى أتى عليها بنقده المرير ، وخلص منها طريقة الإسلام المحض ، وعرضها مجلوة أمام أعين العالمين . وفي انتقاده وتنقيحه هذا لم يجامل أحداً ولم يحابه ، بل تناولَ باحتسابه الكبير والصغير ، ولم يفتْه فيه حتى الجلَّة الذين كان صيتهم في الفضل والكمال والتقدس قد ملأ الآفاق ، وكانت تخضع لهيبتهم الرؤوس ، ثم توجه إلى الطرق والأعمال التي كانت تعد من الأمور الدينية منذ قرون ، وكان الناس قد استخرجوا الأدلة لجوازها بل لاستحبابها ، وكان العلماء يداهنونهم فيها ، فوجدها ابن تيمية مضادة للاسلام ومعاكسة له فشدد في مخالفتها . ولكن هذا الفكر الحر والصراحة في القول أوغرت عليه صدوراً بقيت ولا تزال تعاديه وتحقد عليه إلى الآن . فاما الذين عاصروه فرفعوا أمره الى المحاكم وجعلوه يبعث إلى السجن مراراً ، وأما الذين جاؤوا بعد زمانه ، فشفوا حقدهم بتكفيره وتضليله . ولكن نداءه لاتباع الاسلام الخالص المحض

كان نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الاسلام بين حين وآخر .

ومضافاً إلى هذا العمل التجديدي ، جاهد بالسيف همجية التتر ووحشيتهم . كانت بلاد مصر والشام عند ذلك بمفازة من هذا السيل فنفث الامام في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين هناك روح الغيرة والحمية والحماس وحرضهم على مقاومة أولئك . وقد شهد معاصرو الامام أن المسلمين كان بلغ منهم الخوف والفزع من التتر أن كانوا يرتعشون لمجرد ما يسمعون ذكرهم ، وكانوا يحجمون عن لقائهم خوفاً وذعراً ، كأنما يساقون إلى الموت ، ولكن ابن تيمية أيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بث في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد . على انه من الواقع – مع ذلك كله – انه لم يوفق لبعث حركة سياسية في المسلمين ، يحدث بها الانقلاب في نظام الحكم وتنتقل مقاليد الحكم والسلطة من أيدي الجاهلية الى أيدي الاسلام .

الشيخ أحمد السرهندي

في القرن السابع للهجرة دوّخت فتنة التتر بلاد ما وراء هندوكش ودّمرتها اي تدمير ، ولكن الهند بقيت بنجوة من حملاتها . فأملت هذه المهلة من قبل القدر على مُستوفى هذه البلاد ما تملي – عادة – على هُواة زينة الدنيا . فلم يزل ينمو ويربو فيهم جميع المفاسد التي كانت أصيبت بها خراسان والعراق من إلاهية الملوك واسترسال الامراء وأهل الثروة في اللهو والقصف ، وكسب المال من طرق الحرام وإنفاقه في وجوه

الحرام ، وسلطان الظلم والجبرية والتغابي عن الله والتباعد عن محجة الدين السوية الى ان جاء عهد « أكبر » من ملوك المغول ، الذي بلغت فيه المفاسد والضلالات منتهاها !

فهذا الملك « أكبر » ، كان يسود في مجالسه الرأي : ان ملة الإسلام كانت نشاءتها في أمة بادية أمية ، فلا تصلح لأمة مهذبة مؤدبة . والنبوّة والوحي والحشر والبعث والجنة والنار ، أصبحت تتخذ سخرية وأصبح القرآن مشكوكاً في كونه كلاماً إلهياً ونزول الوحي محالاً عقلياً وحصول الثواب والعقاب بعد الموت مرتاباً فيه . ولكن (التناسخ) كان في رأي القوم أقرب الى الصواب وممكناً من كل وجه . وكذلك كانوا يعدّون المعراج النبوي من المحالات علناً ، ويعترضون على شخصية النّبي وخاصة على تعدد أزواجه وغزواته وسراياه ، حتى عادت كلمتا (احمد) و (محمد) من أبغض الكلمات اليهم ، وغدا الناس يبدلون من أسمائهم ما يشتمل عليهما ، وهجر العلماء التابعون لهم من طلاب الدنيا حمد الله وثنائه في خطبات كتبهم . وبلغ ذلك من بعض الاشقياء منهم ان جعلوا يطبقون علامات الدجال ــ والعياذ بالله ــ على الهادي الاعظم ﷺ هذا ولم يكن يستطيع أحد ان يصلي في البلاط الملكي وبالغ ابو الفضل في اعتراضه على الصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر الدينية ، وتهكم بها . والشعراء هجروها وعابوها وشاع هجاؤهم ذلك في الناس .

وفي عهد هذا الملك نبتت نابتة المذهب البهائي . وقرر ان

بعثة محمد ﷺ قد مضت عليها ألف سنة ، ولم يكن أجل هذا الدين إلا هذا المقدار من السنين . لذلك قد نسخ الآن هذا الدين ويجب ان يستبدل به دين جديد ، وهذه النظرية أشيعت في الناس بواسطة العملة النقدية لأنها كانت أقوى وسائل النشر والدعاية في ذلك العهد . وأسس بعد ذلك دين جديد وشريعة محدثة ، كان المقصد الاساسي من ورائها ، ان يخلط دين المسلمين بديانة الهنادك ويستخرج من خلاطهما ديانة ممزوجة ، يتقوى بها الحكم الملكي . وهنالك جاء الهندكيون المتملقون من حاشية الملك يروون عن أسلافهم البشارات بظهور ملك صالح خدام للبقرة في هذا العهد . وجاء العلماء المسلمون من عباد الدراهم ـ بجانب آخر ـ يحاولون إثبات كون الملك (أكبر) هو المهدي الموعود ورجل زمانه والامام المجتهد وبادر واحد منهم يعرف « بتاج العارفين » فغلا تعظيم أمره ، حتى قرره شبحاً لله بصفة كونه الانسان الاكمل وخليفة زمانه الاعظم وقيل للعامة إقناعاً لهم بصدق هذا الدين الجديد ان الحق والصدق وما شاكلهما من الحقائق العالمية ليست بوقف على دين بعينه دون سائر الأديان ، بل توجد في كل ديانة وملة ، فيجب ان يؤخذ ما هو الحق في كل ديانة وتؤلف من ذلك طريقة واحدة جامعة ، يدعى اليها الناس ، حتى يزول كل الاختلاف بين مختلف الملل وهذه الطريقة الجامعة هي (الدين الالهي) . فاصطنعت كلمة (لا إله إلا الله أكبر خليفة الله) كلمة هذا الدين الجديد . وكان كل من يدخل في هذا الدين

« الالهي القائم على يد الملك اكبر » يقر بتوبته ـ قيل ذلك ـ « من الدين الإسلامي المجازي التقليدي الذي قد ورثه عن آبائه » . ويسمى بعد دخوله فيه بكلمة (تشيلة) ومعناها في اللغة الهندية : المريد والمتبع . وبدلت طريقة السلام فبدلاً من كلماته الثابته بالتواتر كان البادىء بالسلام يقول : « الله أكبر » ويجيب المجيب بكلمة « جل جلاله »(١) وكان هؤلاء المريدون والمتبعون للدين الالهي يعطون صورة الملك ليعلقوها في عصائمهم . وكانت عبادة الملك ركناً من أركان هذا الدين ، فكان الناس يزورونه كل يوم ، وكان كلما تشرف أحد بالمثول بين يديه يخر له ساجداً حتى العلماء والافاضل والصوفية الأسامي لا يتحرجون عن السجود لهذا الملك الذي يعتقدونه مرجع حاجتهم ومتجه مطالبهم ، ويسترون هذا الشرك الصريح منهم بكلمات من مثل « سجدة التحية » و « تقبيل الارض » وهذا هو التعلل البغيض والاحتيال الممقوت ، الذي نبأ به النبي ﷺ بقوله « سيأتي زمان يحلون الحرام بعد ما يبدلون اسمه » .

هذا الدين الجديد وان كانت رفعت قواعده في بداية الامر على أن ستدخل فيه حسنات كل دين ، ولكن الحق أن كان لكل دين غير الاسلام حظوة لدى هذا الدين ، ولم يخص بالعداوة والبغضاء إلا الاسلام وأحكامه وقوانينه . فهذا (الدين الالهي) اقتبس من المجوس عبادة النار فأوقد في القصر الملكي

---

(١) ومما يلاحظ في هذا المقام ان الملك كان اسمه (جلال الدين) ولقبه (أكبر) فلم تكن التحية فيما بين الناس إلا ترديداً لاسمه ولقبه فيه الاعتراف بكونه إلهاً .

موقد نار مؤبدة ، ووجب القيام عند ايقاد المصابيح تعظيماً ، واقتبس من المسيحيين ضرب النواقيس « واجتلاء صورة ثالث الثلاثة » وأشياء أخرى من هذا القبيل . وأما الديانة التي روعي جانبها أكثر وكان الاقتباس منها أتم ، فهي الديانة الهندكية ، لأنها كانت نحلة الاغلبية من سكان القطر ، وكان لا بد من استمالتهم لتقوية أمر الملكية . فحرم لحم البقر ، وجعلت أعياد الهنادك وأيامهم يحتفل بها بجميع شعائرها حسب تعليم ديانتهم ، وراجت التقاليد الهندكية في القصر الملكي ولزمت عبادة الشمس أربع مرات في النهار والتسبيح باسمائها الالف كل يوم . وكلما نطقت الالسنة باسم (الشمس) شفعته بكلمة (جلت قدرتها) وغدا الناس يطبعون على أجبنهم وساماً يقال له (قشقة) في لغة الديانة الهندكية ، ويديرون على خصورهم وأكتافهم حزماً يقال له فيها (جنيو أي الزنار) ويعظمون البقرة ويقدسونها . وفي المعاد آمن الناس بعقيدة التناسخ ، وتعلموا من كهنة الهنادك عقائد أخرى كثيرة . كل هذه العناية والرعاية عامل بها (الدين الالهي) جميع الديانات غير الاسلام . وأما الاسلام فكانت كل حركة وكل عمل من أعمال الملك وملئه تدل على الحقد والعناد الكامن في نفوسهم بحقه ، إذ أن كل رأي يعرضه أهل الملل الأخرى ضد التعاليم الاسلامية باسلوب فلسفي ولهجة صوفية لمناسبة الجو السائد على المجلس الملكي ، كان يسلم به كأنه وحي أوحي من السماء ويرد التعليم الاسلامي بازائه رداً ، ولو ان علماء الإسلام يقولون في

الدفاع عن الاسلام شيئاً او يخالفون ضلالاً ، كانوا يسمون (فقها) وكان معنى هذه الكلمة في مصطلحهم : قوم حمقى لا يؤبه لهم ، وألفت لجنة من أربعين رجلاً للتحقيق في الأديان كانت تدرس جميع الملل والأديان بكل تسامح ، بل تجلة واحترام ، اللهم إلا الاسلام فانه كلما ذكر ، يستهزأ به ويسخر منه . ولو ان بعض حماة الاسلام يريد ان يجيب ويحتج ، يضرب على لسانه ويلجأ الى السكوت . ولم تقف هذه المعاملة السيئة عند هذا الحسد بل تجاوزته الى ان استرسل في تحريف أحكام الاسلام و تبديلها ، فقد أحل الربا والخمر والميسر ، ووجب شرب الخمر في المجلس الملكي لعيد رأس السنة حتى ولا يتأثم منه أهل القضاء والافتاء . وأشيعت بدعة حلق اللحية وأقيمت الأدلة على جوازها . وحظر التزوج بابنة العم وابنة الخال مراعاة لتقاليد الهنادك . وحدد عمر الزواج ، ستة عشر سنة للصبي وأربعة عشر للجارية . وحظر التزوج بأكثر من واحدة ، وأبيح استعمال الذهب والحرير ، وأحل لحم الاسد والذئب ولم يجعل الخنزير حلالاً فحسب، بل عد من الحيوانات المقدسة إمعاناً في عناد الاسلام حتى أصبح يتفاءل برؤيته بكرة الصباح . وأوثر على دفن الموتى إحراقهم أو إلقاؤهم في اليم . وكان اذا أراد أحد ان يدفن ميته ، يوصي بأن يجعل رجليه نحو القبلة . والملك (أكبر) بنفسه كان يجعل رجليه شطر الكعبة عناداً للاسلام . وكان تعليم العربية وتدريس الفقه والحديث يعاب ويزدرى . وكان الذين يشتغلون بذلك يحتقرون

ويستصغرون . وكانت الحكمة والفلسفة والرياضات والتاريخ وما شاكلها من العلوم موضع عناية الحكومة ورعايتها بدلاً من العلوم الدينية والاسلامية . وكان اكثر ميلان أهل الحل والعقد الى طبع لغة البلاد بطابع اللغة الهندية ، وكانت إرادتهم كذلك ان تخرج الكلمات الغربية من لغة البلاد إخراجاً . ومن جراء ذلك كله جعلت المدارس الدينية تخلو وتقفر ، وطفق معظم أهل العلم يغادرون البلاد الى الخارج .

هذا ما يتصل بالحكومة ، أما عامة الناس ، فكان الذين دخلوا بلاد الهند من الخارج ، حملوا معهم ما كان فاشياً في فارس وخراسان من الأمراض الخلقية والاعتقادية . وأما الذين أسلموا منهم في الهند فلم يجدوا نظاماً لتربيتهم وتعليمهم على الطراز الاسلامي ، فبقوا مستمسكين بكثير من عادات الجاهلية القديمة في أفكارهم وحياتهم العملية . ولما اختلط هذان الصنفان من المسلمين ، وامتزجت عقائدها وأفكارهما تولد منهما مركب عجيب من الحضارة سمّوه (التمدن الاسلامي) ، وكان من أجزائها الشرك والامتيازات الجنسية والطبقية ، والأوهام والخرافات وشريعة جديدة من التقاليد المخترعة . والعلماء المفتونون بعرض الدنيا لم يكفهم ان يصادقوا على ذلك الخليط العجيب من العقائد ، بل أصبحوا أخبار هذه الديانة المحدثة وكهنتها ، كانت تنالهم من الناس النذر والهدايا وكانوا يجازون الناس بتحفة التحزب والعصبية .

وأما أصحاب الطريقة ، فكانت لا تزال على أيديهم

سيئة أخرى ، من حيث كانت الاشراقية والرواقية والفلسفة والتصوف الويدانتي قد امتزج بعضها ببعض . وتولد من ذلك تصوف فلسفي بدع ، زج به في نظام العقائد والاخلاق الاسلامي زجاً . وجعلت (الطريقة) و (الحقيقة) شيئين منفصلين عن الشرع الاسلامي ومستغنيين عنه . وفصل بين (الباطن) و (الظاهر) وقرر ان الباطن طريق معاير للظاهر . فكان قانون الباطن لا يعرف حدود الحلال والحرام ، وكانت أحكام الدين منسوخة فيه فعلاً ، والتصرف كله بيد الاهواء : تسقط ما تشاء وتفرض ما تشاء ، بل تجعل ما تشاء من أعظم الفرائض . وتحل ما تريد من الحرام وتحرم ما تريد من الحلال . والذين كانوا أصلح حالاً من معظم هؤلاء المرشدين وأصحاب السلوك ، كانوا متأثرين في قليل او كثير بالتصوف الفلسفي . وكان أضاع عليهم قواهم العملية ـ على وجه الخصوص ـ تصور خاطىء لوحدة الوجود .

هذه هي الظروف التي ولد فيها الشيخ احمد السرهندي في أوائل حكم الملك (أكبر) تمت تربيته وتعليمه بين قوم كانوا أصلح رجال زمانهم . وهم وان كانوا لا يستطيعون ان يحاربوا ما حولهم من الفساد ، إلا أنهم كانوا محتفظين بايمانهم وأعمالهم ـ على الأقل ـ في ذلك الطغيان من الفسق والفساد . وكانوا لا يزالون يصلحون غيرهم على حد وسعهم . وجل ما تلقاه الشيخ من الهداية والارشاد تلقاه على يد الشيخ باقي بالله الذي كان من أكبر علماء زمانه . على ان مواهب الشيخ أحمد نفسه

كانت من وفرتها وكمالها بحيث لما اتصل حبله بحبال الشيخ باقي بالله ، كتب هذا الى بعض أصدقائه يقول عن الشيخ أحمد :

« قد جاء من بلدة (سرهند) أخيراً رجل اسمه الشيخ أحمد ، غزير العلم ، يملك قوة عملية عجيبة ، وقد اتفقت له مجالستي ومعاشرتي بضعة أيام ، فالذي شاهدته خلال ذلك من حالاته يحملني على رجاء أن يكون هذا الرجل فيما يأتي من الزمان نبراساً ينير الدنيا بضيائه » .

وصدقت هذه النبؤة . فانه كان الرجل الوحيد الذي ينهض لقمع تلك الفتن ونصرة الشرع المحمدي ، وجاهد وحيداً لإحياء الدين في وجه قوة الحكومة ، على حين كان عدد لا بأس به من علماء الحق وصلحاء الصوفية موجوداً في أرجاء الهند حتى ذلك العهد . قام هذا الرجل الأرمل الأعزل وخالف علناً تلك المنكرات التي كانت فاحشة في حمى الحكومة ودافع عن الشرع الذي كان مبغوضاً عندها ، فهبت الحكومة تحاول قهره وإعناته بكل ما تملك من الوسائل ، حتى زجت به في السجن ، إلا أنه نجح على رغم أنفها في صرف تيار الفتنة . وعاد الملك جبانكير ـ ابن الملك أكبر ـ الذي كان بعث الشيخ الى سجن (كواليار) لعدم سجوده له سجدة التحية معتقداً للشيخ وأدخل ابنه (خرّم) الذي تولى الملك بعده بلقب (شاه جهان) في حلقة مريديه وأهل بيعته . ونتج من ذلك ان تحول عناد الحكومة لدين الاسلام احتراماً وإعظاماً . وانقضى (الدين الالهى القائم على يد الملك أكبر) بجميع البدع والاضاليل التي كان

اختلقها واضعو الشرع من حاشية الملك وملئه ، كل ما كان أصيبت به أحكام الاسلام من التحريف والتبديل . ولئن بقي الحكم على ما كان عليه من الملكية الاستبدادية الا انه تبدلت على الاقل معاملته للاحكام الشرعية ، فبعد أن كانت الحكومة كافرة بها ، أصبحت محترمة لها ومعتقدة بها . وولد بعد وفاة الشيخ أحمد بثلاث او أربع سنين الملك (اورنك زيب عالمكير) . وربما لم يكن إلا من آثار الاصلاح الذي قام به الشيخ أن تمكن هذا الشاب الملكي من آل تيمور من تحصيل التربية العملية والخلقية التي جعلته خادماً للشريعة ، وهو حفيد الملك (أكبر) الذي كان هادماً للشريعة .

ولا تنحصر مآثر الشيخ أحمد في أنه أنقذ الحكومة في بلاد الهند من السقوط في حجر الكفر ، وثنى تيار الفتنة التي كادت تمحق الاسلام في هذه البلاد بثلاثة قرون أو أربعة قبل زماننا هذا ، بل جاء بصنيعين عظيمين غير ذلك : أحدهما انه طهر معين التصوف الصافي من الادناس والأكدار التي تسربت اليه من ضلالات الفلسفة والرهبانية ، وجاء بالتصوف الاسلامي الاصلي الصحيح ، والثاني انه خالف كل ما كان رائجاً بين العامة من تقاليد الجاهلية أشد المخالفة وبعث بواسطة نظام البيعة والارشاد حركة نامية لاتباع الشريعة ، جال ألوف من أعضائها المتدربين المرنين في أنحاء الهند وبلاد آسيا الوسطى ، بذلوا جهدهم لاصلاح أخلاق العامة وعقائدهم وهذا هو الصنيع الجليل والعمل العظيم الذي يعد الشيخ أحمد السرهندي لأجله في مجددي الأمة المسلمة :

وبعد وفاة المجدد للألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي وقبل وفاة الملك (اورنك زيب عالمكير) بأربع سنين ولد الامام ولى الله في ضواحي مدينة دهلي . وإذا وضع المرء بجانب أحوال زمانه وبيئته ، ووضع بجانب آخر ما جاء هذا الامام من العمل الضخم فانه ليدهش من نبوغ رجل في مثل بصيرته وأفكاره وعقليته في ذاك الزمان المتقهقر . فَمَنْ من المطلعين على التاريخ الهندي لا يعلم حالة البلاد الهندية على عهد (فرخ سير) و (محمد شاه رنكيلا) و (شاه عالم) من الملوك المسلمين المتأخرين ؟ ولكن من أعاجيب الدهر أنه ينشأ في مثل هذا العصر الخامل المظلم مفكر متبصر حرّ الرأي ، يفكر متجرداً عن أوضاع بيئته وزمانه ، ويفك أغلال العلم التقليدي والعصبيات الراسخة في النفوس على طول القرون ، فينظر في كل مسألة من مسائل الحياة نظر المحقق المجتهد ويخلف من ورائه كتباً وتآليف لا يرى على شيء من لغتها واسلوبها وأفكارها ونظرياتها وما تشتمل عليه من مواد التحقيق ونتائج الاستنباط ، لا يرى على شيء منها أثراً لاوضاع ذلك العهد . حتى يكاد المرء لا يخيّل اليه ــ وهو يسرح طرفه في صفحاتها وأوراقها ــ أن هذه الكتب والمؤلفات نسجت بردتها في وسط كان غمره طغيان اللهو والمجون واتباع الأهواء والقتل والنهب ، والظلم والعدوان ، والفوضى .

إن الامام ولي الله ــ لا ريب ــ من زعماء التاريخ الانساني الذين يعالجون مرتبك الافكار ومتشابك الآراء فيجلون غامضها

ويحلون معقدّها ، ويضعون للفكر والنظر الانساني نهجاً واضحاً مستقيماً ، ثم يخلفون من بعدهم في نفوس الناس تضجراً من الاحوال الراهنة ويتركون في أذهانهم صورة رائعة لبرامج الاصلاح والانشاء ، مما يفضي لا محالة إلى أن تنبعث فيهم حركة لهدم الفاسد وعمارة الصالح . ولا يكون إلا في النادر الأندر أن يتولى مثل هولاء الزعماء والمصلحين بأنفسهم إنشاء حركة ما وفق أفكارهم ومنازعهم ، ويهدموا بنيان الفساد بمعاولهم ثم يبادروا لمباشرة البناء والانشاء بأيديهم ، فقليل جداً أمثالهم في التاريخ . وانما هذا الخط من الزعماء تكون مأثرتهم الحقيقية أنهم ينفضون بانتقادهم الجريء غبار الأخطاء والاوهام الساطع على الاذهان منذقرون ، وينورون العقول بنور جديد ، ويحطمون صيغة الحياة الفاسدة الراسخة في عالم الفكر والنظر ، ويستخرجون من أنقاضها الحقائق الاصلية الباقية ويجلون لأعـين العالمين . وهذا العمل في نفسه يكون من العظم والخطر بحيث لا تدع مشاغله المرء ينزل بنفسه في مضمار العمل ويتولى البناء والانشاء . وان إمامنا الجليل وان كان قد أشار في موضع من كتابه (التفهيمات الالهية) إلى أنه لو كانت الظروف والاحوال تقتضي أن يخوض الجهاد ويباشر الاصلاح العملي ، لكان كفؤاً له وقادراً عليه غير أن الواقع أنه لم ينهض بعمل من هذا النوع ، وإنما كان بلغ من إمعانه وتغلغه في حيز أفكاره وتخيلاته أن لم يجد السبيل إلى اصلاح ما كان رائجاً في جواره من العادات غير الاسلامية الكثيرة

وأما معالجة السعي والكفاح على الطريق الذي مهده هذا الامام فكان يتطلب رجالاً آخرين ، وهؤلاء تخرجوا في نصف القرن من حلقة التعليم والتربية المنتمية إلى هذا الامام نفسه .

ولنا أن نقسم عمل الامام ولي الله التجديدي إلى عنوانين رئيسيين : ١ ـ الانتقاد والتنقيح ٢ ـ الاصلاح والتربية . وسأتكلم على كل منهما فيما يأتي على حدة .

أعمال النقد والتنقيح

تحت هذا العنوان قد نظر الامام ولي الله في التاريخ الاسلامي بأكمله نظر المنتقد المحقق والامام على حد ما ينتهي اليه علمي ، وكان أول من تفطن للفرق الجوهري الدقيق بين تاريخ الاسلام وتاريخ المسلمين وتناول تاريخ المسلمين بالنقد والاختبار من وجهة نظر تاريخ الاسلام ليتبين ماذا كانت حالة الاسلام في الواقع بين الأمم الداخلة فيه خلال القرون الماضية المتعددة . وهذا الموضوع يبلغ من الدقة أن الناس ارتبكوا في معضلاته فيما مضى ، ولا يزالون يرتبكون فيها اليوم . فلم يأت أحد من بعد هذا الامام الالمعي يحمل في ذهنه تصوراً واضحاً لتاريخ الاسلام الحقيقي متبايناً عن تاريخ الانسان وقد جاءت في شتى المواضع من كتب الامام إشارات بهذا الصدد ولكنه قد خصّ بانتقاده لتاريخ المسلمين على الاطراد الفصل السادس من كتابه (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء)[1] ومن براعته

---

(١) هذا الكتاب باللغة الفارسية وطبع ببلدة بريلي (الهند) سنة ١٢٨٦هـ.

وإبداعه في ذلك أنه بينما ذكر خصائص كل دور من أدوار التاريخ وتكلم في فتنه وآفاته ، إذ روى إلى جانبه من نبوآت النبي ﷺ ما هو الدلالة على أحوال ذلك الدور.. وقد تضمن نقده هذا لتاريخ المسلمين التنبيه على جميع النوائب الجاهلية التي لم تزل تشوب عقائد المسلمين وأفكارهم وعلومهم وأخلاقهم ومدنيتهم وسياستهم .

ثم إن الامام قد عني بالبحث والتنقيب في هذا الركام من المفاسد الشائعة في المسلمين ، ليتعرف ما هي المفاسد الاصلية الرئيسية التي يتفرع منها سائر المفاسد والمنكرات ، حتى عقد خنصره آخر الأمر على أمرين اثنين : أولهما انتقال السلطة السياسية من الخلافة إلى الملكية ، والآخر خمود روح الاجتهاد في المسلمين واستيلاء التقليد الجامد على الأذهان .

أما المفسدة الاولى فقد توسع في البحث فيها في كتابه (إزالة الخفاء) فبين الفرق الجوهري والاصطلاحي بين الخلافة والملكية ، ثم شرحة بأحاديث النبي - كل ذلك على وجه لم يسبق اليه أحد من المصنفين قبله - وكذلك إن الجرأة والصراحة التي ذكر بها نتائج هذا الانقلاب أي تحول الخلافة ملكية لا يوجد نظيرها في كلام القدماء . فيقول الامام في موضع من كتابه المذكور آنفاً (معرباً عن الفارسية) :

« قد وقع فتور عظيم في إقامة أركان الاسلام ويشهد التاريخ ان أحداً من الخلفاء لم يقم الحج بنفسه بعد عثمان رضي الله عنه بل ظلوا يبعثون لذلك من ينوب عنهم . والحال ان إقامة

الحج من أعمال الخلافة اللازمة . وكما ان تبوأ العرش وليس التاج والجلوس في كرسي الملوك السابقين كان من علامات الملكية عند قيصر وكسرى ، كذلك إن إقامة الخليفة للحج تحت إمرته من خصائص الخلافة في الاسلام ويقول في موضع آخر (معرباً عن الفارسية) :

« كان الوعظ والارشاد فيما قبل موقوفين على رأي الخليفة . ولم يكن أحد ليجلس للوعظ او يقوم بالافتاء بدون أمر الخليفة ولكن الناس بعد هذا الانقلاب أصبحوا لا يبالون فيها رأي الخليفة ولا أمره . وقد آل الأمر في هذا الزمان الاخير إلى ان لا يحتاج فيهما حتى إلى مشاورة جماعة الصالحين » .

وبعد فيقول : (معرباً عن الفارسية) :

« وقد بقيت حكومة هؤلاء كحكومة المجوس . ولا فرق بينهما إلا ان هؤلاء لم يزالوا يصلون وبقيت ألسنتهم تردد كلمة « لا إله إلا الله » وقد ولدنا في هذا الزمان زمان الاستحالة والتغير . ولا ندري ماذا الله صانع فيما يأتي » .

واما المفسدة الثانية فقد نماها الامام في (إزالة الخلفاء) وفي (حجة الله البالغة) وفي (البدور البازغة) وفي (التفهيمات الالهية) وفي (المسوى) و (المصفى) وبالجملة في كل كتاب من كتبه تقريباً فمن قوله في (ازالة الخفاء) : معرباً عن الفارسية .

« حتى انقراض الدولة الاموية لم يكن أحد يدعو نفسه

حنفياً او شافعياً . وإنما كانوا يستنبطون المسائل بالادلة الشرعية على طريقة ائمتهم واساتذتهم .. ولما كان زمان الدولة العباسية اتخذ كل واحد من المسلمين نسبة معينة له . وبلغ من شدة تقليدهم ان لم يكونوا يحكمون في امر بحجج القرآن والسنة ما لم يجدوا فيه نصاً من نصوص أكابر مذهبهم . وبذلك رسخت فيهم واستحكمت بينهم الاختلافات التي نشأت عن الاختلاف في تأويل القرآن والسنة بين علماء السلف . ثم لما انقضت الدولة العربية وقام مقامها الحكم التركي وانتشر الناس في شتى الممالك ، اتخذ كلهم ما كان يذكره من تعاليم مذهبه الفقهي أصلاً ومرجعاً ، فأصبح ما كان قبل ذلك في حكم المذهب المستنبط سنة مستقرة . وبقي مدار عملهم الآن على أن يخرّجوا من المخرج ويفرّعوا من المفرع ! » .

ومن قوله في (المصفى) :

« وهؤلاء السُذّج من أبناء زماننا ينفرون من الاجتهاد أي نفور . كأنما وضع في أنوفهم الخطام فهم منقادون ، لا يكادون يعلمون الى أين يذهبون ، بل هم بعيدون عن التفكير في مثل ذلك غير مكلفين بفهم هذه المسائل » .

وفي البحث السابع من كتابه (حجة الله البالغة) ثم في كتابه (الانصاف) قد سرد الامام تاريخ هذا الداء العضال بتمامه ودل على المنكرات التي قد تولدت منه .

وبعد أن يفرغ الامام من نقده لتاريخ المسلمين يستعرض حالة زمانه وينعي على كل طائفة من طوائف المسلمين نقائصها

ومعايبها مخاطباً اياها باسمها . فيقول في موضع من كتابه (التفهيمات الالهية) .

أما هذا الوصي فانه وجد في زمان شاع فيهم ثلاثة أشياء

١) البرهان ، وذلك لاختلاط علوم اليونانيين واشتغال القوم بالكلام حتى لا يكاد يوجد كلام في العقائد إلا ممزوجاً بمناظرات برهانية .

٢) والوجدان وذلك لاجتماع الناس شرقاً وغرباً على قبول الصوفية وانقيادهم لها ، حتى كأن أقوالهم وأحوالهم أعلق بقلوبهم من الكتاب والسنة وكل شيء وحتى دخلت رموزهم وإشاراتهم في الناس ، فمن أنكر رموزهم وإشاراتهم او كان منهم على جانب ، فانه لا يقبل ولا يعد من الصالحين ، وما من من واعظ على رؤوس المنابر إلا وكلامه ممزوج بالاشارات الصوفية ، وما من عالم يعلم الناس إلا وهو يعتقد كلامهم ويتأمل فيه او هو من أصحاب الطبيعة كالبهائم . وما من ناد من أندية الأمراء وغيرهم إلا وعرضة ألسنتهم وبذلة أيديهم وفكاهة محافلهم أشعار الصوفية ونكاتهم

٣) والسمع ، وذلك لدخولهم في الملة الاسلامية . ونشأ في زمان اتبع فيه كل ذي رأي رأيه ولن ترى فيه أحداً يقف على المتشابهات وما أشكل عليه من العلم ، ولن ترى أحداً إلا ويخوض في فهم معاني الاحكام وأسرارها ويميل في ذلك الى المعقول وصار لكل رجل مذهب حسبما فهمه . وتجادلوا وتناظروا وتباحثوا ولم يمكن الاتفاق والإصلاح أصلاً .

واختلفوا في انواع الفقه ، منهم الحنفي ومنهم الشافعي وكل يتعصب لاصحابه وينكر على الآخرين وكثرت التخريجات في كل مذهب وخفي الحق .

ويقول في موضع آخر من هذا الكتاب نفسه :

فأقول لأولاد المشايخ المترسمين برسم آبائهم من غير استحقاق : يا ايها الناس ! ما لكم تحزبتم أحزاباً واتبع كل ذي رأي وتركتم الطريقة التي أنزلها الله على لسان محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفاً بهم وهدياً لهم فانتصب كل واحد منكم إماماً ودعا الناس اليه وزعم نفسه هادياً مهدياً وهو ضال مضل . نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمناً قليلاً او ليصيبوا أغراض الدنيا بتعلم علم إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبيه بأهل الهداية ؛ ولا بالذين يدعون الى انفسهم ويأمرون بحب أنفسهم ، هؤلاء قطاع الطريق دجالون كذابون ، مفتونون فتانون ... وأقول لطلبة العلم يا ايها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء ، اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني وظننتم ان هذا هو العلم . إنما العلم آية محكمة من كتاب الله او سنة قائمة من رسول الله ﷺ . خضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم . أما تعرقون ان الحكم ما حكمه الله ورسوله . وربَّ إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به ويقول إنما عملي على مذهب فلان ، لا على الحديث ، ثم يحتال بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمّل المَهَرة وإن الأئمة لم يكونوا ممن

يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من فسخ او مـرجـوحية. اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيء ان آمنتم بنبيكم فاتبعوه ، خالف ذلك مذهباً او وافقه .

وأقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في القانقاهات : يا أيها المتنسكون ! ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس ودعوتم الناس الى الموضوعات والاباطيل وعسرتم على الخلق ، وإنما بعثتم ميسرين لا معسرين وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق . وكلام العشاق يطوى ولا يروى .

وأقول للامراء : يا أيها الأمراء ! أما تخافون الله ؟ اشتغلتم باللذات الفانية الداثرة وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضاً . أما شربت الخمور جهرة وأنتم لا تنكرون ؟ أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وانتم لا تغيرون ؟ أما هي البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة او أكثر ؟ من وجدتموه ضعيفاً أكلتموه . ومن وجدتموه قوياً تركتموه . وخاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور ، وما رفعتم الى الله رأساً .

وأقول للعسكرية : ايتها العسكرية ! أخرجكم الله للجهاد ولتظهروا كلمة الحق وتكتبوا الشرك ، فتركتم ما أخرجكم لأجله واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسباً تستكثرون به أموالكم بغير نية الجهاد وقصده . شربتم الخمر والحشيش وحلقتم اللحى وأعفيتم الشوارب وظلمتم الناس ولم تبالوا

ما تأكلون . فو الله إن الله سوف ترجعون فينبئكم بما كنتم تعملون .

وأقول للمحترفة : ضاعت أماناتكم وذهلتم عن عبادة ربكم وذبحتم لطواغيتكم وحججتم الى (المدار) و (السالار) وبئس صنيعكم ذلك . ورب إنسان منكم كثر ماله وكسبه فجعل يتكلف في لباسه وزيه ومطعمه ما لا يكفي له كسبه فيضيع حقوق نسائه ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمور واستيجار الفروج فيضيع معاشه ومعاده .

وأقول لجماعات المسلمين عموماً خطاباً واحداً : يا معشر بني آدم! رقدتم عن أخلاقكم وغلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزأرت النساء على الرجال وغمط الرجال حقوق النساء ، واستطبتم الحرام واسبشعتم الحلال . يا معشر بني آدم : اتخذتم رسوماً فاسدة تغير الدين : اجتمعتم يوم عاشوراء في الاباطيل ، فقوم اتخذوه مأتماً . اما تعلمون ان الأيام أيام الله و الحوادث منَ مشيئة الله وان كان حسين رضي الله عنه قتل في هذا اليوم فأي يوم لم يمت فيه محبوب من المحبوبين ، وقوم اتخذوه لعباً بحرابهم وسلاحهم ، وقوم اتخذوه منسكاً . أف لصنيعكم . اجتمعتم يوم البراءة يلعب قوم ويزعم قوم انه يجب إكثار الأطعمة للموتى ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، ورسوما تضيق عليكم كالافراط في الولائم وكالامتناع من الطلاق وكامساك المرأة بعد زوجها من النكاح فضيعتم أموالكم وأوقاتكم في الرسوم وتركتم

الهدي الصالح وكان المرضي ان لا تتخذوا هذه الرسوم ، وان تتخذوا رسوماً سهلة ليس فيها ضيق . اتخذتم المأتم عيداً وكأن إكثار الطعام واجب عليكم . وضيعتم الصلوات . وقوم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يقدروا على الصلوات . وسبب هذا الفساد انهم ما اخذوا رخص الله . وقوم اشتغلوا بتزجية الوقت بالحكايات والاحاديث فلو انهم اتخذوا مجالسهم في رحب حول المساجد يسهل عليهم الصلوات . وضيعتم الزكاة وما من غني إلا له متعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم . ولو انه نوى الزكاة والعبادة لكفاه . وضيعتم صوم رمضان ، ويضيعه قوم لانهم صاروا عسكرية لا يقدرون على الصوم مع ما ما عليهم من المخنة . واعلموا انكم أسأتم التدبير وصرتم عيالاً على السلطان ولما لم يجد السلطان ما يعطيكم ضيق على الرعية .

ويكتب في مكان آخر من كتابه (التفهيمات) :

« كل من ذهب إلى بلدة (اجمير) وإلى قبر (سالار مسعود) او ما ضاهاهما لأجل حاجة يطلبها فانه آثم إثماً أكبر من القتل والزنا . أليس مثله الا كمثل من كان يعبد المصنوعات او مثل من كان يدعو اللات والعزى . الا أنّا لا نصرح بالتفكير لعدم النص من الشارع في هذا الأمر المخصوص . وكل من عين الميت حيواناً وطلب منه الحوائج فانه آثم قلبه . »

وقد أسهبنا في الاقتباس ، ولكن عبارات من الجزء الثاني من كتابه (التفهيمات) لتقتضينا انّ ننقلها أيضاً للقراء بهذا الصدد فيقول الامام :

« قال رسول الله ﷺ : لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم . قلنا يا رسول الله « اليهود وللنصارى » ؟ قال « فمن » ؟ أخرجه البخاري ومسلم . صدق رسول الله ﷺ ؟ فقد رأينا رجالاً من ضعيفي المسلمين يتخذون الصلحاء أرباباً من دون الله ويجعلون قبورهم مساجد ، كما كان اليهود والنصارى يفعلون ذلك وقد رأينا رجالاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، يقولون : الصالحون لله والطالحون . كما قال الذين هم قبلهم لن تمسنا النار الا أياماً معدودة . وان سألت الحق فقد فشا التحريف في كل طائفة . فالصوفية أظهرت أقاويل لا يدرى لها توفيق بالكتاب والسنة ولا سيما في مسألة التوحيد ، وكاد ان لا يكون عندهم الشرع ببال . وكم في فقه الفقهاء من أمور لا يدرى من أين أخذوها كمسألة عشر في عشر[1] وكمسألة الآبار وغيرها[2] أما أصحاب المعقول والشعراء وأصحاب الثروة من الناس والعامة الذين يعبدون الطواغيت ويتخذون قبور الصلحاء مساجد ومعابد ، فالى أين يذكر ما هم فيه من الغواية ! ».

وقد يقدر من هذه العبارات المقتبسة بعض التقدير عمق دراسة الامام ولي الله لغابر المسلمين وحاضرهم وشمول انتقاده

(١) أي مسألة الحوض ، وهي ان ماءه لا يكون في حكم « الماء الكثيرة » الا اذا كان الحوض عشرة اذرع في عشرة .

(٢) اي مسألة عدد الدلاء من الماء التي لا بد ان تستخرج من البئر لتطهيرها من نجس الحيوان الواقع فيها .

لأحوالهم . ومثل هذا الانتقاد يفضي لا محالة إلى أن كل ما يوجد في المجتمع من العناصر الصالحة التي يكون ضميرها نابضاً وايمانها حياً ، وتكون نفسها شاعرة بالفرق بين الخبيث والطيب ، يقلقهم جداً الشعور بمساءة الاحوال ويرق إحساسهم الإسلامي رقة يعود بها كل أثر من آثار الجاهلية فيما حولهم سخنة عين لهم ، تزيد قوة تمييزهم زيادة تجعلهم يحللون اختلاط الاسلام والجاهلية في كل ناحية من نواحي الحياة ويبلغ من يقظة ايمانهم أن تستفزهم كل حزة ، يحزها في قلوبهم النظام الجاهلي ، على مزاولة الاصلاح . ويكون من واجب المجدد بعد ذلك أن يعرض عليهم خطة واضحة مستبينة لعمل التعمير والتشييد حتى يتسنى لهم ان ينصبوا أمام أعينهم الحالة التي يريدون أن يستبدلوها بالحال الحاضر ، ويجعلوا كل سعيهم وعملهم في سبيلها . وهذا العمل التعميري أيضاً قام به الامام ولي الله بتلك الجودة والبراعة والشمول الذي قد شاهده القاريء في عمله الانتقادي .

أعماله التعميرية

وأول عمل هام من أعماله التعميرية هو أنه قد جاء في مسائل الفقه بمذهب جد معتدل لا يوصم بالميل الى مذهب فقهي بعينه والطعن في سائر المذاهب . وقد طالع الامام جميع المذاهب الفقهية ودرس أصولها وطرق استنباطها دراسة المحقق ، ثم رأى فيها رأيه غير مائل الى أحد منها أو متأثر بآخر فان كان قد أيد مذهباً منها في مسألة ما ، فلانه وجد الحجة

توافقه ، لا لأنه قد أخذ على نفسه حمايته . وكذلك ان كان خالف مذهباً ما فلأنه وجد البرهان يناقضه ، لا لأنه يتعقب عليه ويعانده . ومن ثم تراه حنفياً في بعض المسائل .

الامام حيثما تكلم في مسألة من المسائل في كتبه ، قد تكلم كالمحقق والمجتهد . فالمطالع لكتبه لا يتعلم منها مباديء الاجتهاد فحسب بل يتمرن مع ذلك فعلا على مزاولة التحقيق والاجتهاد .

وان العملين المذكورين آنفاً من أعمال الامام ولي الله انما هما من النوع الذي قد سبقه فيه غيره من السلف . وأما العمل الذي لم يسبق اليه أحد قبله ، هو أنه اجتهد أن يعرض النظام الاسلامي الكامل بجميع جوانبه الفكرية والخلقية والشرعية والعمرانية مرتباً ومنسقاً . وهو الفعال الذي قد فاق فيه الامام كل من تقدمه به من المصلحين . ولا ريب أن قد مضى في القرون الثلاثة أو الأربعة من صدر التاريخ الاسلامي كثير من الأئمة الذين يتضح من آثارهم أن كانت تنطوي أذهانهم على تصور ، واضح لنظام الحياة الاسلامي الكامل ، وكذلك نجد في القرون التالية محققين يكاد لا يظن بهم أنهم كانوا فارغي الذهن من هذا التصور ، ولكن الحق أنه لم يصرف أحد منهم عنايته الى ترتيب النظام الإسلامي من حيث هو نظام كامل للحياة البشرية . فكان فضل السبق اليه قد قدر للامام ولي الله الدهلوي وهذا هو موضوع كل من مؤلفيه : (حجة الله البالغة) و (البدور البازغة) . أما أولهما فأكثر بسطاً وتفصيلا ، وأما الآخر فأدخل في الفلسفة .

وقد افتتح الكلام في هذين الكتابين بمسائل ما بعد الطبيعة . وأنت تجد أول مرة في التاريخ رجلاً يمهد السبيل لتدوين فلسفة الإسلام . وذلك أن الذي لم يزل يقوله أو يكتبه المسلمون من قبل في باب الفلسفة ، قد سماه الناس خطأ فلسفة إسلامية ، اذ أنها ليست بفلسفة إسلامية بل هي فلسفة المسلمين ، التي ورثووها من اليونان والروم ، والفارس والهند . واما ما يجدر بان يسمى بفلسفة الإسلام فقد أشار الى مبادئه هذا الإمام الدهلوي . والإمام وان كان قد استمد مصطلحاته من لغة علم الكلام والفلسفة القديمين او التصوف الفلسفي ، وقد تخلل كلامه أيضاً كثير من التصورات اللاحقة بتلك العلوم ، من غير ان يشعر بها ــ كما لا مناص منه طبعاً لكل من ينهج طريقاً مستجداً ــ الا ان سعيه هذا في فتح باب جديد للتحقيق لسعي جليل القدر . ومن العجب حقاً لظهور رجل في مثل هذه العقلية القوية في عهد كان قد بلغ من الانحطاط دركه الاسفل .

في هذه الفلسفة يسعى الامام لإيجاد تصور لهذا الكون ومنزلة الانسان فيه يتلاءم وينسجم مع نظام الاخلاق والمدنية في الاسلام ، وبكلمة أخرى إذا اعتبرنا ذلك التصور أصلا لشجرة الإسلام فلا يستأنس بين هذا الأصل وبين ما تفرع منه تباين طبعي[1] . واني لأكاد أقضي العجب حينما أسمع بعض

(١) إن الفلسفة التي كانت رائجة في المسلمين . لم تكن لها علاقة بالنظام العملي والخلي والاعتقادي في الاسلام . ولذلك كلما زاد رواجه وانتشاره . ازدادت حياة المسلمين فساداً ، وعقائدهم ضعفاً وأخلاقهم انحلالا . وقواهم العملية فتوراً=

القوم يتقولون على الامام أنه كان حاول ان يهيء اساساً فكرياً للقومية الهندية الجديدة بمزج الفلسفة الويدانتية بالفلسفة الاسلامية : فالحق اني لم اعثر في كتبه على محاولته تلك ولو عثرت عليها لكنت اخرجت الامام من صنف المجددين وجعلته في زمرة المتجددين .

وبعد ان يحكم هذا الاساس من امور ما بعد الطبيعة يعود فيرتب عليه نظاماً للاخلاق . وإني لأجدهُ في هذا المقام ـ معترفاً له بالفضل ـ يتجنب تقليد علوم الاخلاق اليونانية ، تلك العلوم التي وقع في حبائلها رجال كالدواني ، والتي لم يخلص من آثارها حتى الامام الغزالي ، فلم يزل ذهنه متأثراً بها . ولكن مع ذلك لا يصح ان يقال ان الامام ولي الله قد سلم كل السلامة من اثر تلك العلوم اليونانية .

ثم على نظام الأخلاق هذا يرفع الامام بنيان فلسفة اجتماعية (Social Philosophy) قد عنونها باسم : (الارتفاقات) ويفصل القول بهذا الصدد في تدبير المنزل وآداب الاجتماع ، وسياسة المدن والعدالة وضرب المحاصيل (Taxation) والادارة والتنظيم العسكري ويلمع مع ذلك كله الى الاسباب التي تؤدي الى فساد التمدن .

ثم يتقدم بنظام الشرعية والعبادات والأحكام والقوانين

= وكل ذلك نتيجة طبيعية لتنازع الافكار في ذهن الانسان . وهذا الاثر قد يبدو في المسلمين برواج الغربية بينهم في هذه الآونة . لأن هذه الفلسفة أيضا لا تصلح بحال من الأحوال ان تكون أساسا فكريا للنظام الاسلامي .

ويروح يبين الحكمة من وراء كل ذلك . وهذا الموضوع الخاص قد عمل فيه الامام مثل عمل الامام الغزالي قبله . ومن الطبيعي ان قد تقدمه الامام ولي الله في هذا المضمار .

وفي الاخير قد القى الامام نظرة على تاريخ الملل والشرائع ، وهو - على حد ما ينتهي اليه علمي على الأقل - اول من جاء بتصور خفي تقريبي للنزاع التاريخي بين الاسلام والجاهلية .

النتائج :

وإنَّ إخراج مثل هذه الصيغة الجيدة والسبك والترتيب للنظام الاسلامي الذي تم على يد هذا الامام - كان في نفسه كفيلاً بأن يصبح هذا النظام هدف كل ذي طبع سليم وفطرة مستقيمة ، وان يتقدم من هؤلاء من تكثر فيهم قوة العمل ، فيخاطروا بأنفسهم في سبيله ، سواء أتولى واضع هذا الهدف نفسه قيادة تلك الحركة أم لا . على أن الذي استفز الناس أكثر من ذلك كله هو أن الامام ولي الله بيّن لهم الفرق بين الحكومة الجاهلية والحكومة الاسلامية جلياً كالشمس ، ولم يجتزىء بإيضاح مزايا الحكومة الاسلامية ، بل أعاد وبدأ في هذا المبحث بأساليب جعلت أهل الايمان لا يطيب لهم العيش دون أن يجاهدوا في استبدال الحكم الاسلامي بالحكم الجاهلي القائم . هذا الموضوع قد جاء مبسوطاً في كتابه (حجة الله البالغة) واما (إزالة الخفاء) فكأنه مختص به ومقتصر عليه . فيثبت الامام فيه بشواهد الحديث ان الخلافة الاسلامية والحكم الملكي شيئان متباينان في أصلهما وجوهرهما . ثم يضع أمام القراء

ـ بجانب ـ الحكم الملكي وما جرّه من الفتن على حياة المسلمين الاجتماعية ، حسب شهادة التاريخ ، ويعرض بجانب آخر الخلافة الاسلامية الصحيحة وما كان لها من المزايا والشروط ويذكر البركات التي قد نزلت على المسلمين في أزمنة الخلافة واني كان للناس بعد ذلك يا ترى ان يصبروا على ما هم فيه من الحال ويستنيموا اليها ؟ !

السيد أحمد البربلوي والشيخ اسماعيل الشهيدان[1]

لأجل ذلك لم ينقض على وفاة الامام ولي الله الدهلوي نصف قرن ، حتى انبعثت في القطر الهندي حركة كان هدفها هو الذي تركه الامام ماثلاً امام أعين القوم مثول النور ، فاذا نظرت في مكاتيب السيد أحمد وأقواله المأثورة ، وفي مؤلفات الشيخ اسماعيل (كمنصب الامامة) و (العقبات) و (تقوية الايمان) وسائر عباراته وجدت في كل ذلك نفس الامام ولي الله ينطق وروحه تتكلم . ذلك بأن الامام خرجّ عدداً كبيراً من أهل الصلاح واصحاب الفكر السليم بتعليم القرآن والحديث وبتأثير شخصيته . وجاء بعده أبناؤه الاربعة ولا سيما الشيخ عبد العزيز منهم ، فوسعوا تلك الحلقة ، حتى انتشر في نواحي القطر ألوف من الذين أشربوا في قلوبهم أفكار الامام

---

(١) ولد السيد أحمد (مسترشد الشيخ عبد العزيز ابن الامام ولي الله الدهلوي) سنة ١٢٠١هو ١٧٨٦م واستشهد سنة ١٢٤٦هو ١٨٣١م وولد الشيخ اسماعيل (حفيد الامام ولي الله) سنة ١١٩٣هو ١٧٨٩م واستشهد سنة ١٢٤٦ه/١٨٣١م .
ولعل جذوة الحركة الانقلابية قد التهبت في قلب السيد أحمد حوالي سنة ١٨١٠م .

وانعكست في أذهانهم صورة الاسلام الصحيحة والذين أصبحوا لعلمهم وفضلهم وسيرتهم المحمودة سبباً لنفوذ أثر الامام وحلقته في عامة الناس . وكأني بكل ذلك مهّد الطريق للحركة التي كان عسى ان تقوم من حلقة الامام ولي الله ، بل من بيته .

ان السيد أحمد والشيخ اسماعيل يكادان يكونان وجوداً واحداً باعتبار الروح والمعنى . وهذا الوجود المتّحد لا أعتبره مجدداً مستقلاً بذاته ، بل أعتقده تتمة للعمل التجديدي الذي نهض به الامام ولي الله الدهلوي . وأعمال هذين البطلين الجليلين تتلخّص في أنهما :

أولاً : اضطلعا بعبء إصلاح دين العامة وأخلاقهم ومعاملاتهم . وحيثما بلغت آثار إصلاحهم في القوم طرأ على حياتهم من الانقلاب ماذكر بعهد الصحابة الكرام .

ثانياً : أعدّا الأهبة للجهاد على نطاق واسع . مما كان من المستحيل حقاً في بدء القرن التاسع عشر في قطر متقهقر كالهند . وأظهرا في هذا الاستعداد براعتهما في أمور الادارة التنظيم . ثم اختارا لابتداء كفاحهما شمالي غربي الهند ، بغاية الحكمة والتفكير . لأن هذه البقعة كانت بحكم موقعها الجغرافي وأوضاعها السياسية أجدر البقاع بهذا الامر . ثم التزما في هذا الجهاد تلكم المبادىء الخلقية والقوانين الحربية التي يمتاز به المجاهد في سبيل الله عن المحارب للغرض الدينوي . وبذلك مثّلا للعالم مرة أخرى في التاريخ . بالروح الاسلامية المحضة :

من حيث لم يقصدوا من حربهم فتح الممالك . ولا جمع الاموال ولا جعلوا جهادهم في سبيل عصبية قومية أو غرض دنيوي . بل في سبيل الله خالصاً . ولم يكن نصب أعينهم سوى إنقاذ خلق الله من سلطة الحكم الجاهلي . وإقامة نظام للحكم يوافق مشيئة خالق الكون ومالك الملك . فلما خرجوا يقاتلون في هذا السبيل بدأوا بالدعوة إلى الإسلام أوالجزية . عملاً بقاعدة الاسلام . ثم جردوا السيف إتماماً للحجة . ولما خاضوا القتال . التزموا قانون الحرب المهذب الذي قد علّمه الاسلام . فلم يرتكبوا ظلماً ولا فعلاً همجياً . وأيما قرية دخلوها . دخلوها مصلحين لا مفسدين . ولم يصحب جيوشهم شيء من رواقيد الخمر اوالطبول او الدفوف او فرق البغايا . ولا اصبحت ثكناتهم موضع الدعارة والفواحش يوما من الأيام . لا نجد مثالاً واحداً في التاريخ لكون جيوش هؤلاء المجاهدين اجتازوا بلدة وتركوا اهلها يبكون اموالاً سلبت او اعراضاً هتكت إنما كان رجالهم فرسان النهار ورهبان الليل . يخشون الله ويذكرون حساب يوم القيامة يثبتون على الحق في المنشط والمكره . ولا يعرفون الفرار من الزحف . ولا يلفون جبارين متكبرين بعد الفتح والنصر .

ثالثاً : اغتنما الفرصة التي تهيأت لهم للحكم في بقعة صغيرة من الأرض . فأقاما فيها نظاماً للحكم على الطراز الذي قد سمي بالخلافة على منهاج النبوة . يمتاز بتلك الخصائص التي كانت تمتاز بها خلافة الشيخين ابي بكر وعمر كالامارة الساذجة

والمساواة الكاملة . والشورى والعدل والنصفة . وإقامة الحدود الشرعية وأخذ المال بالحق وإنفاقها في سبل الحق ونصرة المظلوم على ضعفه ومؤاخذة الظالم على رغم قوته . ومعالجة الحكم بخشية الله . وسياسة البلاد بالاخلاق الصالحة . فجددا بحكمهما الصالح رسم تلك الخلافة الراشدة مرة اخرى .

هذان الجليلان وإن أخفقا في مهمتهما لأسباب طبيعية سنأتي عليها فيما يلي[1]. إلا أنهما بعثا في أذهان القوم حركة واضطراباً . لا تزال آثارها باقية في هذا القطر إلى الآن على مضي أكثر من قرن عليها .

أسباب فشلهما

إن البحث في أسباب فشل هذه الحركة التجددية الاخيرة لا يلائم في الغالب طبع أناس لا يحبون ان يذكروا صلحاء سلفهم إلا بغاية الاجلال والتقديس . ولذلك أخشى ان كلامي تحت هذا العنوان سيسخط كثيراً من إخواني . ولكننا ـ معشر المحتفلين بذكرى الامام ولي الله الدهلوي ـ إذا لم يكن غرضنا من هذا الذكر والاذكار اطلاق لسان المدح والثناء فحسب

---

(١) أخفقا من جهة الظاهر لا من جهة الحقيقة . لأن النجاح الحقيقي عند المسلم هو أن يقوم ويسعى لاقامة دين الله حق السعي طلباً لمرضاة الله تعالى . ومن هذه الجهة كان هذان المجاهدان ومن معهما ناجحين من غير شك . ولكن اخفاقهما باعتبار النتائج . إذ هما لم يوفقا للقضاء على سلطة الجاهلية واقامة سيطرة الاسلام مكانها في بلادهم . فهذا هو الأمر الذي نحن بصدد البحث في أسبابه حتى يمكننا تجنب تلك الاسباب في السعي لاقامة الدين .

فيمن سبقونا بالايمان ، بل كان قصدنا بذلك ايضاً الاتعاظ بأعمالهم ، لتجديد الدين في الزمان الآتي ، فلا مندوحة لنا عن أن ننظر في التاريخ نظرة الناقد ومتى بحثنا عن مآثر اولئك السلف الصالحين يجب أن نفتش في الوقت نفسه عن الأسباب التي خابوا لأجلها في نيل مقاصدهم . فإننا إذا طالعنا في جانب أحوال العلماء الصالحين الذين خرجوا من مدرسة الامام ولي الله وأبنائه الفاضلين ، ومقامات المجاهدين الذين كانوا مع السيد أحمد والشيخ اسماعيل الشهدين ، أخذنا العجب والدهش لهم كأننا بين يدي الصحابة والتابعين ، واستغربنا ان يكون قد مضى في زمان قريب من زماننا رجال من هذا الطراز العالي . واما اذا رأينا في جانب آخر ان مثل هذه الحركة الاصلاحية الانقلابية القوية التي كان من زعمائها وأعضائها أمثال اؤلئك العلماء المتقين قد فشلت ولم تنجح في إقامة الحكم الاسلامي في القطر الهندي ، على رغم استفراغها الجهد والسعي لذلك ، وبالعكس من ذلك طرأ على الهند نفر من الانكليز من ألوف الاميال ونجحوا في إقامة حكم جاهلي خالص فيها . ما ملكنا أنفسنا ان نسأل : ما سبب هذا ؟ هذا سؤال في غاية الأهمية ، وان تركناه بغير جواب عليه لشدة الاكبار والتعظم لا لتلك النفوس السامية ، فملعناه إشعار الناس بضآلة أثر الصلاح والتقوى والجهاد في إصلاح شؤون هذه الدنيا ، وابلاسهم من نجاح كل حركة اصلاحية من حيث يظنون انه إذا فشل مثل ذلك الجهاد المبني على التقوى والصلاح ، فكيف بالفوز والنجاح لأحد في هذا

الزمان ! واني قد سمعت مثل هذه الشبهات من بعض الناس ، بل طرحت إليَّ هذه الشبهة في جمع حافل في قاعة جامعة (عليكره) حينما اتفقت لي زيارتها أخيراً ، فاضطررت لازالتها إلى إلقاء خطبة موجزة على المستفسرين ثم إني أعلـــم ان من بين ظهـرانينا في هذه الآونة رجال من جماعة العلماء الصالحين ، هم فارغو الأذهان على العموم من هذه المسألة ، والحق ان هذا السؤال إن حققنا فيه وبحثنا في أمره استنبطنا منه عبراً تعيننا القيام بعمل أصح وأقوم فيما يأتي من الأيام .

السبب الأول :

ان أول ما يحك في نفسي من مواطن النقص في العمل التجديدي الواقع من لدن عصر الشيخ أحمد السرهندي المجدد للألف الثاني إلى عصر الامام ولي الله الدهلوي وخلفائه ، هو انهم لم يحسبوا كل الحساب لداء المسلمين في باب التصوف ، فداووهم « بالتي كانت هي الداء » وحاشا لله ان أكون ، من المعترضين على نفس التصوف الذي دعا اليه هؤلاء المجددون ، والذي كان في روحه وجوهرة تصوفاً اسلامياً خالصاً وكان لا يختلف في وضعه ونوعيته عن منزلة « الاحسان » في شيء ، ولكن الذي أراه كان خليقاً بأن يجتنب ويتحامى هو استعمال اشارات التصوف ورموزه واختيار لغته وأسلوبه ، والابقاء على الطرق المماثلة لطريقته . وذلك انه من الظاهر المعقول ان التصوف الاسلامي الحقيقي ليس بمفتقر إلى هذا القالب المخصوص بل قد يتخذ له قالب من الشكل الآخر ، وتختار له لغة ومصطلح

غير ما قد راج في جمهور الصوفية من اللغة والمصطلح ، وتتجنب اشاراتهم وتلميحاتهم ، وكذلك قد يستبدل بما هو شائع في الصوفية الرائجة من نظام البيعة والعهد بين المرشدين والمريدين ، وما اليه من الصور العملية ـ قد يستعمل بها صور أخرى أقرب إلى القصد والاعتدال . ولما كان ذلك من العتيد الميسور فما اللزام لأن يصر على اتخاذ هذا القالب بعينه للتصوف . وهو قالب عتيق كان حرّياً بالالغاء لكونه قد أصبح عشا ووكراً للصوفية الجاهلية ، وكون المسلمين قد ابتلوا لعمومه وانتشاره بأمراض اعتقادية وخلقية معضلة . حتى آل الأمر في هذه الآونة إلى انه مهما كان من صحة التعليم والارشاد الذي يقوم به رجل من المصلحين فلا يصاغ في هذا القالب المخصوص من التصوف ، حتى يعاود الناس جميع الادواء والأمراض التي قد علقت به على طول القرون . فكما ان مثل الماء في طيبه وطهارته قد يحماه المريض إذا كان له فيه ضرر ، كذلك ان هذا القالب على كونه مباحاً قد عاد حقيقاً بأن ينبذ ويلغى بتّة لأن في طيّاته قد غذّى المسلمين بالمخدرات ، وفي ضمن تعاليمه قد سول لهم الجمود . فهم لا يقاربونه إلا وتعتريهم تلك الحالة من النشوة والذهول التي لم تزل تلاطفهم وتهدهدهم قروناً متوالية . وما أن تجري سلسلة البيعة والاتباع ، الا وتنشأ في المريدين المبايعين تلك العقلية المخصوصة التي يمثلها المثل الفارسي القائل : « بمي سجّاده رنكين كن كوت بير مغان كويد » (اي لا تحتذ حتى من الخمر اذا امرك به شيخك) مما لا يبقى بعد ذلك

من فرق بين المرشد وبين ارباب من دون الله . ويخدُر الفكر والنظر وتضؤل قوة النقد ويلغى استعمال العلم والعقل ، ويبلغ من استيلاء العبودية (لحضرة الشيخ) على قلوب المريدين واذهانهم ان يكاد الشيخ يكون ربا لهم ويكونوا هم عباده المربوبين . ثم اذا اخذ المرشد يشتغل بالكشف وينطق بالالهام ، اشتدت في معتقديه العبودية الذهنية . ويتبع كل ذلك استعمال الرموز والاشارات الصوفية مما تستفزّ القوة المتخيّلة في المريدين ، فتحلق بهم هذه في عالم غير هذا العالم ـ عالم الطلاسم والاعاجيب ـ الذي لا يزالون يتنزهون فيه ليل نهار قلمّا يهبطون منه إلى عالم الواقع . وهذا الداء من ادواء المسلمين لم يكن يجهله حضرة المجدد للألف الثاني ولا الامام ولي الله الدهلوي ، بل يوجد في ثنايا كلامهما التنديد به والاستنكار له . ولكنهما ربما لم يدركا غورهذا الداء واستحكامه في المسلمين ، ولذلك غذوهم بما كان قد تحقق ضرره لهم فيه . وكان من نتائج ذلك ان بقيت حلقتهما تتأثر يوماً فيوماً بذلك الداء المزمن[1] . وإن إسماعيل الشهيد رحمه الله وان تفطن لهذه الحقيقة واتبع السيرة التي سارها الامام ابن تيمية ، ولكن مواد هذا الداء كانت موجودة في كتب الامام ولي الله ومؤلفاته ، فلم يزل أثرها باقياً في كتابات الشيخ اسماعيل ، وكانت تجري مع ذلك سلسلة البيعة والارشاد في الحركة الاصلاحية التي قام

(١) لم يمض على وفاة الشيخ أحمد السرهندي أيام حتى جاء رجال حلقتهم فلقبوه بـ(القيوم الأول) ولقبوا خلفاءه (بالقيوم الثاني والثالث) معاذ الله من ذلك .

بها السيد أحمد . لاجل ذلك كله لم تتمكن هذه الحركة من السلامة من جراثيم مرض الصوفية ، وظهر بعد شهادة السيد أحمد بقليل فريق من حلقته كان يقول كالشيعة بغيبوبة السيد ، ولا يزال إلى هذا اليوم منتظراً لخروجه ثانية . فكل من شاء الآن ان يعمل عملاً على تجديد الاسلام ، فحتّم عليه ان يجنب جمهور المسلمين لغة الصوفية واصطلاحاتهم ورموزهم وإشاراتهم ولباسهم وعاداتهم وسلسلة البيعة والاتباع المعمول بها عندهم إلى كل ما يذكر بطريقتهم ـ يجنبهم كل ذلك كما يُجنّب مريض ذيابيطس كل شيء حلو !

السبب الثاني :

الأمر الثاني الذي قد انتبهت اليه في دراستي لأعمال السيد أحمد والشيخ اسماعيل الشهيدين دراسة النقد والتحقيق هو أن البلاد التي اتخذها الجليلان ميدانا لجهادهما ومقراً لحكومتهما الاسلامية ، لم يهيآها لهذا الانقلاب العظيم من ذي قبل . وما من شك في أن جيشهما كان يتألف من رجال قد نشأوا على الاخلاق الفاضلة واجتازوا مراحل التربية الروحية ، ولكنهم لكونهم قد تجمعوا من شتى نواحي القطر الهندي كانوا بمنزلة المهاجرين الأجانب في شمالي غربي الهند . وقبل إثارة الانقلاب السياسي في هذه البقعة كان لا بد من ان يحدِث في أهالي هذه البلاد أنفسهم انقلاب فكري وخلقي ، حتى يكون أولئك المحليون قد استعدّوا لفهم نظام الحكم الاسلامي وتجهزوا لنصرته وحمايته ، ولكن كلا هذين الزعيمين ربما ظن أن أهالي

الثغور باعتبار أنهم مسلمون ، ثم هم مضطهدون على أيدي السلطة الكافرة ، فلا بد أن يرحبوا بالحكم الاسلامي ، ولذلك ما أن وصلا إلى تلك البقاع ، حتى شرعا في الجهاد وإقامة الخلافة الاسلامية فيما دخل تحت أيديهم منها . ولكن أثبتت التجربة فيما بعد إن إنزال جميع (المسلمين الجغرافيين) منزلة المسلمين الحقيقيين ووضع الثقة فيهم كوضعها في المسلمين الخلصّ كان مزلّة وقع فيها هذان البطلان . فان أهالي تلك البلاد كانوا لا يطيقون تحمّل أعباء الخلافة والحكم الاسلامي ، فلما ألقيت على كواهلهم آصارها ، مالوا بها ووقعوا معها ، ووقع معهم بنيان الخلافة المقدس . هذه العبرة التاريخية كذلك مما يجب أن يراعى ويلاحظ في كل حركة تجديدية في المستقبل . وليكن منّا على ذكر أن كل انقلاب سياسي لا ترسخ أصوله في العقلية الاجتماعية والأخلاق والتمدن ، يكون كالنقش على سطح الماء ، ولئن قدر لمثل هذا الانقلاب أن يتحقق ويتم بأسباب مؤقتة وقوة عارضة فلا يمكن أن يبقى إلى بعيد ، بل يمّحى عن قليل ويزول ، وإذا زال لم يخلف وراءه من أثر يذكر[1].

السبب الثالث :

بقي أن نبحث عن السؤال ماذا كان يفوق به الانكليز

(١) لاجل ذلك ترى أن مقاطعة الحدود لا يوجد فيها اليوم أثر من آثار هذين الشهيدين وأعمالهما المباركة ، حتى لم يعد أهاليها يتعرفون بأسماء أولئك المجاهدين أخيراً ، الا عن طريق ما وصل اليهم من الكتب الاردية في أحوالهم .

الطارئون من ألوف الاميال رجال هذه الحركة التجديدية ، حتى اقاموا الحكم الجاهلي في مهجرهم ، وعجز هؤلاء عن تأسيس الحكومة الاسلامية في وطنهم ؟ هذا السؤال يستعصي عليك جوابه الصحيح ما لم تضع بين عينيك تاريخ اوربا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين . فاجعل في كفّة كل ما قام به الامام ولي الله وخلفاؤه من العمل والسعي لتجديد الاسلام ، وضَعْ في الاخرى تلك القوة الجبارة التي نهضت بها الجاهلية المعاصرة لهم ، تتبين النسبة بين هاتين القوتين باعتبار النواميس الجارية في عالم الاسباب هذا . ولعلي لا اكون مبالغاً إذا قلت ان كانت نسبة هذه لتلك كنسبة رطل إلى مائه طنْ . ولذلك لم تكن نتيجة صراعهما غير ما ظهر فعلاً .

إن العصر الذي ولد فيه عندنا الامام ولي الله الدهلوي وابنه الشيخ عبد العزيز ، والشيخ اسماعيل الشهيد تنبهت فيه اوربا من سباتها الذي طال أمده مدة القرون الوسطى ، ونهضت متسلحة بقوة جديدة ، ونبغ فيها من رجال العلم والفن وأصحاب التحقيق والاختراع والاكتشاف من بدّلوا الارض غير الارض . فكان هذا العصر هو الذي ظهر فيه في اوربة فلاسفة من أمثال (هيوم) و (كانت) و (فتشي Fethe) و (هيجل) و (كومت: Comte) و (شلاير ماشر : Macher Scrlier) و (مل) ممَّن أحدثوا أعظم الانقلاب في المنطق والفلسفة وعلم الاخلاق وما إلى ذلك من العلوم العقلية . وهو العصر الذي نبغ فيه (غلوبني : Galyani) و (وولتا : Volta) في

الفيزياء ، و (لافوازيه Lavoigier) و (بريستلي : Priestiley) و (ديوي : Davi) و (هيوي) و (برزيليس) في الكيمياء ، و (ليني Linne) و (هالو Halloa) و (بيشات : Bichat) و (وولف Wolff) في علم الحياة..

اولئك المحققون الذين لم يرتقوا بالعلوم الطبيعية فحسب ، بل ابتدعوا نظرية جديدة لهذا الكون وللانسان الذي يعيش فيه . وهذا هو الزمان الذي رتب فيه علم الاقتصاد الجديد بفضل الجهود العملية التي عني بها (كويسني : Quesney) و (ترغوت : Turayot) و (آدم سمث) و (مالطيس) ، وهو الدور الذي انجبت فيه فرنسا أمثال (روسو) و (وفولتير) و (مونتسكو) و (دينس ديديرو : Denis Diderot) و (لاميتري : Lamettrie) و (كيبانيس Cabanis) و (بفون Buffon) و (روبيني : Robinet) وأنجبت بريطانيا أمثال (طامس بيني : Paine) و (وليم غادوين Godwin) . و (داود هارتلي) و (يوسف بريستلي) و (اراسمس داروين) وأنجبت فيه المانيا (جوته) و (هردر) و (شيلر) و (ونكلمان Winekelmann) و (لسنغ : Lessing) و (بيرون دي هولباش Baron. Holbach) الذين أثروا في علوم الأخلاق والأدب والقانون والدين والسياسة وجميع العلوم العمرانية أيما تأثير . وانتقدوا الحضارة القديمة بأشد ما يكون من الجرأة والصراحة . وانشأوا دنيا جديدة من النظريات والأفكار .

وانتشرت أفكارهم ومنازعهم على أوسع ما يكون من النطاق ، لاختراع المطبعة وكثرة الطبع والاخراج ، وندرة أساليب الكلام واستعمال اللغة السهلة الساذجة لابداء ما في الضمير بدلا من اللغة الاصطلاحية المغلقة . فلم يؤثروا بنظرياتهم وتعاليمهم في أفراد معدودين وحدهم ، بل أثروا في الأمم بجملتها ، فبدّلوا العقليات ، وحوّلوا الأخلاق ، وقلبوا نظام التعليم ، وجدَّدوا نظرية المعاش ومقصد الحياة الانسانية ، وجاؤوا بنظام للمدنية والسياسة مستحدث !

وفي هذه الآونة وقع الانقلاب الفرنسي الذي تولّدت في أعقابه حضارة مستجدة ، وفي هذا الزمان أيضاً أفضى اختراع الآلة إلى انقلاب صناعي عظيم تمخض عن مدنية جديدة مقرونة بقوة مستحدثة ، ومسائل حياة مبتكرة ، وفيه ارتقت الهندسة ارتقاء عجيباً وزوّدت أوروبا من القوة والسلاح ما لم يتهيأ لأَمَّةٍ قبلها في التاريخ . وفي هذا العصر تعوّض من فن الحرب القديم فن الحرب الجديد بالأدوات المستحدثة والتدابير العصرية . وجرى العمل بتنظيم العساكر بالرياضة والتدريب ، مما جعلها تتحرّك في ميادين الحرب تحرّك الآلة الميكانيكية ، وأصبح من المستحيل للجيوش المؤلفة على الطراز القديم أن تثبت في وجهها . ونال التغيير والتعديل كذلك ترتيب الجيوش وتقسيم العساكر والمناورات الحربية ، واستمرّ هذا الفن يعدّل ويرقّى باكتساب التجارب في كل حرب ومعركة . واطرّد كذلك عمل الاختراع والاكتشاف في آلات الحرب وأسلحتها ، فاخترعت البندقية ،

وصنعت خفاف المدافع للحركة السريعة في ميدان الحرب ، وأما المدافع العظيمة الهادمة للقلاع فضوعفت قوة هدمها وصلابتها أضعافاً ، وألغي باختراع (الخرطوشة : Cartridge) استعمال البنادق القديمة ذات عيدان الثقاب . فكان من عواقب ذلك كلّه أن انهزمت الاتراك في أوروبا وانهزم الولايات المحلية في الهند ، انهزاماً متصلاً في وجه جنود أورّوبا المنظمة على الطراز البديع واستولت فئة قليلة من جنود نابليين بونابـرت على مصر بكل سهوّلة .

ويتّضح من إرسال النظر في هذا العرض المستعجل للتاريخ المعاصر أنه بينما كان تنبّه عندنا في الشرق آحاد من الرجال ، إذ كانت تنبّهت في الغرب أمم جمعاء . وبينما تم ههنا قليل من العمل في جانب من جوانب الحياة المتعددة ، إذ حصل هناك ألف ضعف من ذلك العمل في كل ناحية من نواحي الحياة . بل لم تغادر تلك الأمم شعبة من شعب الحياة الانسانية بدون أن تركض إلى الرقيّ فيها أشواطاً . ففي هذه البلاد إنما كتب الامام ولي الله وأولاده كتباً معدودةً في علوم بعينها بلغت حلقة من العلم ولم تجاوزها ، وهنالك في بلاد الغرب ألفت من الكتب في كل علم وفن ما عمر المكاتب وشغل دور الكتب التي طبقت الأرض واستولت آخر الأمر على مشاعر الامم وعقلياتها . وعنّ عندنا الإقتراح بتأسيس الافكار من جديد على علوم الاخلاق والعمران والفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، ولكنه لم يتجاوز حدود البدء والنشوء ، وعند أمم الغرب رتّبت

على أساس تلك المسائل في أثناء ذلك مذاهب فكر غـيرّت من وضع هذا العالم . وبقي علم الطبيعيات والقوى المادية في بلادنا على ما كان عليه منذ خمسة قرون ، وفي بلاد الغرب كان من تقدم القوم في هذه العلوم ما يدهش ويروع . وبفضل هذا التقدم زادت قوة أهل الغرب زيادة أصبح من المحال جداً مقاومتها والانتصار عليها بقديم الادوات والآلات .

وان تعجب فعجب كون الانكليز قد سطوا في زمان الامام ولي الله على مقاطعة بنغال برمّتها ، وبلغ نفوذهم إلى (إله آباد) ، ولم يأبه الامام بتّة لهذه القوة الناهضة . والشيخ عبد العزيز - ابن الامام - كان قد أصبح ملك الهند في العاصمة عالة على الانكليز في أيامه وكانت أقدام الطارئين قد رسخت في جميع القطر الهندي على وجه التقريب ، ولكنه لم يبد له أن يتحدث في سر تقدم هؤلاء القوم ، وفي أسباب المنعة والبأس من وراء هذه القوة الناشئة ، وأما السيد أحمد والشيخ اسماعيل الشهيدان . فلا ريب أنهما اتخذا للاصلاح جميع التدابير وتوصلا اليه بكل الوسائل ، إلا أنه لم يخطر لهما ببال أن يبعثا وفداً من العلماء المتبصرين إلى أوربا ليدرسوا هناك أحوال تلك الأمة الغربية التي كانت لا تزال تجترف أقطار الارض كالسيل الآتي ، وتستخدم كل جديد محدث من الادوات والوسائل والطرق والعلوم والفنون ، يبحثوا عن سر قوتها المدهشة وسبب ارتقائها العجيب ، ويتعرفوا : اي النوع من المنشآت والمؤسسات كانت توجد في وطن هذه الامة ومن أي صنف كانت علومها وفنونها ، وما

الذي تقوم عليها مدنيتها ، وما الذي ينقصهم من العدد والوسائل بازائها ؟ فانه في الآونة التي قام هذان العظيمان للجهاد ، لم يكن خافياً على أحد ان القوة الرئيسية الاصيلة في الهند لم تكن قوة (السيخ)[1] بل قوة الانكليز الطارئين ، وكانت هذه جديرة ان تقف أمنع حاجز في وجه الانقلاب الاسلامي . ولكننا لا نكاد نفهم : كيف مات هؤلاء السادة الافاضل وغرب عن بصائرهم الثاقبة ان يختبروا أنفسهم ويزنوا قوتهم وبأسهم ، ثم يوازنوا بينه وبين قوة خصمهم الذي كانوا يستعدون للقائه طلباً للفصل النهائي في نزاع الاسلام والجاهلية ، حتى يدركوا مواطن الضعف والنقص في أنفسهم فيعنوا بمعالجتها قبل ان يقدموا على اللقاء . إنهم – واأسفاه – قصروا فيه ، وإذاً لم يكونوا ليسلموا من عواقب ذاك التقصير في هذا العالم السببي .

ختام القول

ان الفشل والهزمية التي أصيبت بها هذه الحركة القائمة لتجديد الاسلام ، في وجه الجاهلية الغربية نتلقى منها دروساً وعبراً : أولها انه لا يكفي لتجديد الدين في زمن من الازمان إحياء العلوم الدينية وبعث الولوع باتباع الشريعة فحسب ، بل يلزم لذلك إنشاء حركة شاملة جامعة تشمل بتأثيرها جميع العلوم والفنون والافكار والصناعات ونواحي الحياة الانسانية جمعاً ، وتستخدم ما أمكن من القوى لاحكام أمر الاسلام . الدرس

---

(١) السيخ أمة همجية من الهنادك تقطن في شرقي بنجاب (الهند) .

الثاني : مأخذه قريب من الاول ، هو أن عمل التجديد في هذا العصر الحديث يتطلب قوة اجتهادية جديدة . وللقيام بهذا العمل لا يغني مجرد البصيرة الاجتهادية التي نجدها في مآثر الامام ولي الله او من سبقه من المجتهدين والمجددين . وذلك ان الجاهلية الجديدة قد انبرت بما لا يعد ولا يحصى من الوسائل المبتكرة وأحدثت ما لا حد له ولا حصر من المسائل الجديدة ، مما لم يخطر على قلب الامام ولي الله او أسلافه الأقدمين ، فلم يحسبوا له حسابا . وإنما أحاط به علم الله جل اسمه ، او كان استبصره النبي ﷺ بما آتاه الله من النور ، ومن ذلك ان كتاب الله وسنة النبي هما مرجعان وحيدان ، يجوز ان تلتمس منهما الهداية لتجديد ملة الاسلام . وبعد الاخذ من الكتاب والسنة ، تتطلب ـ لبسط محجة العمل والسعي بمقتضى هذا الزمن ـ قوة اجتهادية بنفسها ، لا تتقيد بمآثر أحد بعينه من المجتهدين الماضين ولا تنحصر في طريقه ومنهاجه دون غيره ، وان اقتبست من كلهم ولم تتحام أحداً منهم .

واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

كتبه بالأردية
أبو الأعلى المودودي

نقله الى العربية
محمد عاصم الحداد

واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم

مقدمة

قال بعد أن حمد الله واثنى عليه :

قد استعرضت لكم أمس ، في خطبتي الافتتاحية ، ما عليه حال بلادنا اليوم ، وفصلت القول في مادب ، في كل ناحية من نواحيَ حياتنا ، من المفاسد والسيئات ، ثم بينت لكم أسبابها وعللها ، وأريد ان أعرض عليكم اليوم ما أعددنا من برامج نثق ان تكون علاجاً حاسماً ووسيلة ناجعة لاصلاح هذه المفاسد وقطع دابرها ان شاء الله .

ولكن يبدو لي قبل ان أتقدم في بيان هذا البرنامج ، ان أزيل سوء فهم يمكن ان يقع فيه بعض الناس وهو انه اذا بينت لكم برنامج الجماعة الاسلامية بعد بسط الكلام في المفاسد الحاضرة وأسبابها ، فلا يذهبن بكم الظن الى انه ما قامت هذه الجماعة الا لإصلاح مثل هذه المفاسد الموقتة ، وليس أمامها من غاية الا ان تجدد ما تهدم من الابنية القديمة البالية . فكل هذا مما لا يوافق الامر الواقع ، لان الجماعة الاسلامية واضعة نصب عينيها غاية عالمية حيوية مستقلة واليكموها :

« أن تستأصل شأفة كل نظام للحياة أسس بنيانه ووضعت

قواعده على الانسلاخ من عبودية الله وعدم المبالاة بالمسؤولية الأخروية والاستغناء عن تعاليم الانبياء وإرشاداتهم . فانه مبيد للانسانية مقوض لدعائمها ، وان تقيم مكانه نظاماً للحياة مبناه على طاعة الله عز وجل والايمان بالآخرة واتباع الرسل والانبياء فإنه لاسعادة للانسانية ولا فلاح الا فيه » .

فاحداث الانقلاب في الحياة الاجتماعية على هذا الوجه هو الغاية التي تدور حولها مساعي الجماعة ومجهوداتها كلها ، وهي لا تتخذ اي برنامج من برامجها . ولو كان لزمان معين ومكان محدود . الا لقطع مرحلة من مراحل هذا الانقلاب . اننا نريد ان نحدث هذا الانقلاب اولاً في أرضنا باكستان لنجعل منها وسيلة لاصلاح الدنيا قاطبة . فان كنتم تشاهدوننا اليوم نتناول بالبحث مفاسد باكستان ومصائبها الحاضرة ، فلأنها تعوقنا عن المضي في سبيلنا ، وتحول دون غايتنا . فلا تظنن ان إصلاح تلك المفاسد هو المقصود من وراء مجهوداتنا من حيث هو ، او اننا نريد الاكتفاء بترميم بناء نظام فاسد . كلا ! بل الامر انه لو لم توجد فينا اليوم هذه المفاسد ، لرأيتمونا نعمل ونجد في بلوغ نفس هذه الغاية التي هي غاية سرمدية عالمية شاملة ولا يستطيع ان يعوقنا عن بلوغها شيء واننا لن نزال نكافح في سبيلها في كل حال ، سواء أعرضت لنا في بقعة من بقاع الارض مسائل موقتة من نوع واحد ام من نوع آخر .

نظرة في التاريخ الغابر : والحاجة ماسة بعد هذا الايضاح الى ان تستعرضوا تاريخكم الغابر كما قد استعرضتم مفاسدكم

الحاضرة حتى تكونوا على بينة من الامر وتعرفوا حق المعرفة هل قد حدثت هذه المفاسد ومواطن الضعف في مجتمعكم بغتة كحادث اتفاقي ام لها أصل راسخ تتغذى منه ، ووراءها سلسلة من الأسباب والعلل طويلة .

لانكم ما دمتم لا ترون الامور ولا تعرفون حقيقتها على هذا النحو لا يمكن ان تتضح لكم شدة هذه المفاسد وسعتها واستفحالها أو تشعروا بحاجة الى الاصلاح او تفطنوا الى ما يجعلنا اليوم نرى الاصلاح الجزئي في البلاد نفخاً في رماد أو صيحة في صحراء ، ونعتقد أنه ما دمنا لا نأتي في هذه البلاد بتغيرات أساسية في نظام حياة أهلها بجهود متواصلة وبرنامج للاصلاح شامل وجماعة منظمة صالحة ، لا يمكن أن تعود علينا التدابير التافهة والمشاريع السطحية بشيء نافع أبداً .

*

من أهم حوادث تاريخنا وأكثرها عبرة وعظة أن استولت على بلادنا في القرن الماضي ـ الثالث عشر للهجرة ، التاسع عشر للميلاد ـ أمة أجنبية غير مسلمة جاءتنا من وراء البحار ، ولم نتخلص من نير عبوديتها إلا قبل أربعة أعوام فقط . علينا أن نفكر في هذه الفاجعة التاريخية من عدة وجوه :

١ ـ لماذا ابتلينا بها ؟ أفكانت حادثة مفاجئة حلت بنا من غير سبب أو كانت من قبيل ظلم الطبيعة إيانا أذاقتنا لباسه من غير ما جريمة أتيناها ؟ أو كنا في حياتنا راشدين على صراط مستقيم ولم يكن فينا وهن ولا فساد ؟ أم كنا نربي في أنفسنا

ضروباً من السيئات والرذائل منذ آماد طويلة من الزمان لقينا مغبتها بصورة ان استولت علينا هذه الأمة الأجنبية ، وأرهقتنا بعصاقهرها واستعبادها ؟ فان كان الأمر أن كانت فينا سيئات ورذائل ضعضعت كياننا وهدمت مقوماتنا فما هي هذه الرذائل والسيئات ؟ أو قد تحررنا منها أم لا تزال لها بقية فينا حتى اليوم ؟

٢ ــ وهل كان الكابوس الذي استولى علينا من وراء البحار الاستعباد والاستعمار فقط أم لزمه وصحبه بطبيعة الحال أنواع من الآلام والبلايا في حقول الاخلاق والافكار والدين والمدنية والثقافة والاقتصاد والسياسة ؟ فان صحبه ــ ومن الذي يشك في ذلك ــ أنواع من البلايا والآلام فلنتفكر ماذا كان من تأثيرها ، وإلى أي الجهات امتد نفوذها ؟ وهل لها من آثار لا تزال باقية فينا إلى اليوم حتى بعد زوالها وانقشاع غياهبها ؟

٣ ــ ما هو رد الفعل الذي كان منا على هذه البلايا والآلام ؟ هل كان رداً واحداً من يد واحدة أم كانت الردود تختلف باختلاف الطوائف ؟ فان كانت مختلفة . فماذا كان من آثارها المستحسنة والمستهجنة لا يزال يوجد حتى اليوم في حياتنا القومية ؟

فهذه مسائل ثلاث سأبذل جهدي في إيضاحها كيما تتجلى لكم صلة كل مفسدة من مفاسدنا الحاضرة بما مضى من تاريخنا ، وتعرفوا حق المعرفة . منبتها ، وإلى أين تمتد جذورها ، وما هي الاسباب التي تتغذى منها ؟

أسباب عبوديتنا

إن الاستعباد الذي ابتلينا به في القرن الماضي إنما كان نتيجة محتومة لانحطاطنا الديني والخلقي والفكري الذي كنا متردين فيه من قرون عديدة ، إذ كان قد بلغ بنا الأمر من الضعف والتقهقر والانحطاط ، حيث لم يعد من الممكن أن يقر لنا قرار أو أن نثبت على أقدامنا بأنفسنا ، ففي مثل هذا الوضع كان من المحتوم ان تحل بنا نازلة من النوازل ، فها هي ذي قد نزلت في صورة الاستعمار البريطاني وفقاً لقانون الطبيعة .

حالتنا الدينية : ولنكون على حقيقة من الامر يجب علينا ان نستعرض ، قبل كل شيء ، ما كانت عليه حالة بلادنا من الناحية الدينية في القرن الماضي ، فان أهم شيء لدنيا هو الدين ، ولا غرو فهو ملاك حياتنا وهو الذي يربط بين قلوبنا وأرواحنا ويجعلنا أمة واحدة ، وهو الذي لا يمكن ان نقوم ونظل قائمين في الدنيا إلا به .

فالذي يشهد به تاريخنا الماضي ان الاسلام ما انتشر في هذه البلاد نتيجة لمساع مبذولة منظمة . بل إننا إذا استثنينا الايام

الاولى من الفتح الاسلامي في السند والقرن الذي بعده ، لا نكاد نعثر في عصر من العصور على قوة منظمة بذلت جهودها في نشر الاسلام وتعميم دعوته في هذه البلاد بجانبه ، وسهرت على تدعيم أركانه واستحكام عراه حيث انتشر في جانب آخر . وغاية ما كان من الامر ان جاء إلى قرية من القرى او مدينة من المدن رجل مسلم من اهل العلم والمعرفة فدخلت طائفة من الناس في الاسلام على يده ، او جاء اليها تاجر من التجار المسلمين فأسلم عدد من الناس بسبب الاختلاط به ، او نزل بها رجل ورع من أنزه المسلمين سيرة وخلقاً وعشرة ، فتأثر الناس بسمو أخلاقه وصفاء حياته ، فقبلوا الاسلام ودخلوا في كنفه . الا ان هؤلاء الافراد المنفردين لم يكن بأيديهم من الوسائل ما يساعدهم على العناية بتعليم الذين أسلموا على أيديهم وتربيتهم وتلقينهم مبادىء الدين وأصوله ، ولا كان يهم الحكومات المسلمة وقتئذ ان تعنى بتعليم هؤلاء المهتدين وتربيتهم حيثما انتشر الاسلام ودخل الناس في حظيرته بمساعي هؤلاء الأفراد المنفردين .

فكان من جراء هذه الغفلة ان ظل عامتنا سادرين في الجهل والجاهلية منذ أول أمرهم . اما المعاهد التعليمية فما استفاد منها في معظم الاحوال إلا الطبقات العليا او الوسطى . وما زال الدهماء في جهل تام بتعاليم الاسلام محرومين من آثاره الاصلاحية إلى حد عظيم . وقد سبب كل ذلك ان كان الناس من غير المسلمين يدخلون في دين الله شعوباً وقبائل . إلا ان

كثيراً من الرسوم الباطلة والعادات الجاهلية مما كانوا عليه قبل إسلامهم ، لا تزال متفشية بهم إلى يومنا هذا ، بل لم تتغير أفكارهم ومعتقداتهم تغيراً تاماً ، ولا يزال يوجد فيهم ، الى الآن ، كثير من عقائد المشركين وأوهامهم التي ورثوها عن أديان آبائهم الكافرين . وأقصى ما حدث فيهم من الفرق بعد إسلامهم ان أخرجوا من تاريخ الاسلام آلهة لهم جديدة مكان الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل ، واختاروا لأعمالهم الوثنية القديمة أسماء جديدة من المصطلحات الاسلامية ، وكأن العمل على ما كان عليه من قبل وإنما تغير قشره ولونه الظاهري .

فان أردتم الشاهد على ما أقول ، فسرحوا النظر في ما عليه حالة الناس الدينية في أي بقعة من بقاع بلادكم ، ثم ارجعوا الى التاريخ وابحثوا عن الدين الذي كان الناس يدينونه في هذه البقعة قبل ان يأتيهم الاسلام ، فستعلمون انه توجد هناك كثير من العقائد والاعمال التي تشبه عقائد الدين المنقرض وأعماله إلا انها في شكل آخر ولون غير لونه . فالبقاع التي كانت فيها الديانة البوذية قبل الإسلام مثلا ، كان الناس يعبدون فيها آثار بوذا ، فهنا سن من أسنانه ، وهناك عظم من أعظمه . وثمة شيء آخر من أشيائه يعبده الناس ويتبركون به ، وإنكم لتجدون اليوم أن الناس في هذه البقاع يعاملون مثل هذه المعاملة شعراً من أشعار النبي ﷺ او أثراً من آثار قدمه أو يتبركون بآثار بعض صالحي المسلمين وعابديهم . وكذلك إذا استعرضتم كثيراً من الرسوم والعادات المتفشية اليوم ببعض القبائل المتوغلة

في إسلامها . ثم نظرتم في ما يروج في البطون غير المسلمة لهذه القبائل نفسها من الرسوم والتقاليد ، فقليلاً ما تجدون فارقاً بين هذه وتلك . أفليس ذلك مما يشهد شهادة ناطقة بأن الذين كان بيدهم زمام أمر المسلمين وشؤونهم الاجتماعية في القرون السالفة ، قصروا في أداء واجبهم ايما تقصير ، إذ لم يمدوا يد التعاون والمساعدة الى الذين بذلوا جهودهم في نشر الاسلام بجهودهم الفرديه ، فقد انجذب مئات الملايين من الناس إلى حظيرة الإسلام متأثرين بدعوته . ولكن الذين كانوا سدنة لبيت الإسلام متولين أموره ، لم يعنوا . في قليل ولا كثير ، بتعليمهم وتربيتهم وتزكية حياتهم وإصلاح فكرهم . فلم يكتب لهم ان يتمتعوا ببركات الإسلام ونعم التوحيد حق التمتع ويقوا أنفسهم المضار التي هي نتيجة لازمة للشرك والجاهلية ثم ارجعوا ببصركم الى ما كان عليه علماؤنا ومشايخنا في هذه القرون الماضية . فمما لا مجال فيه للريب والمكابرة ان كان فيهم نفرٌ أسدوا الى الدين خدمات جلية كانت نافعة بالأمس ولا تزال نافعة الى اليوم . إلا أن المشاغل التي شغلت معظم علمائنا وألهتهم عن الجد في أمر الدين الحقيقي ، كانت من قبل ان كانوا يتناظرون في المسائل التافهة غير المهمة ، ويجسمونها في نظر الناس ويوارون عنهم المسائل الهامة الجليلة . ويجعلون الخلاف أساساً لفرق مستقلة . ويجعلون التحزب والتفرق مضماراً للمجادلات والمخاصمات . ويقتلون أعمارهم في تعليم علوم المعقولات اليونانية وتعلمها . اما الكتاب والسنة فلم

يكن لهم ولوع بدراستهما ولم يؤتوا حظاً من معارفهما . ولذلك لم يتمكنوا من تعميم معارف القرآن والسنة وترغيب الناس في ارتياد مناهلها . وأما ان كان لهم بعض شغف بالفقه ، فانما ذلك الى حدٍ يعينهم على مجادلاتهم ومناقشاتهم في الجزئيات والفروع . انهم لم يلتفتوا ولو أدنى التفات إلى التفقه في الدين بمعناه الشامل ولذا فحيثما كان لهم نفوذ او تأثير ، ضاقت وجهة نظر الناس في الدين .

فلا عجب اذا كنا قد ورثنا اليوم هذا الزرع الاخضر من المجادلات والمناظرات والتحزبات والفتن المستمرة .

وان تعجب ، فعجبٌ من حال الصوفية ، فانكم اذا سرحتم النظر فيهم ، لا تجدون من بينهم من عملوا بالتصوف الاسلامي الحقيقي وعلموه الناس الا عدداً يسيراً ، أما معظمهم فكانوا يدعون الناس ويرشدونهم الى تصوف كان مزاجاً من الفلسفات الاشراقية والويدانتيه والمانوية والزرادشتية وكانت طرق الرهبان والاحبار والاشراقيين والرواقيين اختلطت به اختلاطاً ، حتى لم تبق له علاقة بعقائد الاسلام وأعماله الخالصة الا قليلاً . ولقد كان عباد الله يرجعون اليهم مستهدين الى الله وهم يهدونهم الى طرق معوجة وسبل زائفة . ثم لما خلف من بعدهم خلف ، ورثوا ، في ما ورثوا عن أسلافهم ، مريديهم وأتباعهم ، ولم يبقوا مما كان بينهم من العلائق الا على علاقة النذور والهدايا دون الارشاد والوعظ والتربية وأكثر ما سعت له هذه الدوائر ، ولا تزال تسعى له ، هو ألا يتسرب قبس من

العلم الصحيح بالدين الى حيث لمشيختهم النفوذ والتأثير . فانهم يعرفون كل المعرفة انه لن يدوم لسحرهم ودجلهم تأثير في الناس الا ما داموا جاهلين بدينهم .

*

الحالة الخلقية : هذا ما كانت عليه حالتنا الدينية التي كانت لها يد ، واي يد ، في دفعنا الى درك الاستعباد في القرن التاسع عشر ، ولا تزال هذه الحالة ، بما فيها من الرذائل والسيئات ، مسيطرة علينا حتى بعد تبلج صبح الاستقلال والحرية اليوم .

وإذا نظرنا من الوجهة الخلقية ، كان الانحطاط والتدهور الخلقي المستمر قد بلغ بطبقتنا الوسطى ـ وهي قوام كل أمة وعماد أمرها كما لا يخفى ـ مبلغاً جعل من رجالها عمالاً مستأجرين (Mercenarg) من فطرتهم أن يخدموا كل من استأجرهم ثم استعملهم واستخدمهم في ما شاء ولأي غرض شاء . فكان مئات الألوف من رجالنا مستعدين ليكونوا جنوداً مستأجرين يستخدمهم من شاء ويوقد بهم نار الحرب على من احب ، وكذلك كان ألوف بل مئات ألوف من شبابنا مستعدين ليكتري منهم كل متغلب فاتح أيديهم وقواهم الذهنية بأجرة بخسة او وافرة ، ثم يسيّر بها إدارة ملكه ، بل يستعملها في مداوراته الدبلوماسية السياسية ، فاستغل ضعفنا الخلقي هذا كل عدو من أعدائنا من المرهتة او السيك او الفرنسيين والهولنديين ، وأخيراً فتح الانكليز بلادنا ودوخوها بسيوف رجالنا وتحكموا في أعناقنا بأيدينا وأذهاننا . ومما يدمي العين

ويفجع القلب ان وعينا الخلقي كانت قد انطفأت جذوته حيث بدأنا نفتخر بأعمالنا بدلاً من ان نشعر بقبح صنيعها وسوء مصيرها ، وقد عدها أحد كبار شعرائنا من مفاخر أسرته ومآثرها وقال ما معناه ان الجندية مهنة آبائه وأجداده كابر عن كابر ، والحال ان تعاطي المرء الجندية كمهنة . عارٌ عليه وعلى ذويه بدل ان يكون مفخرة او محمدة . فأين يكون من المروءة والانسانية من لا يكاد يفرق بين الحق والباطل ولا يميز صديقه من عدوه ؟ وكل من ملأ بطنه خبزاً وكسا جسده ثوباً ، استعد للقتال معه والذود عن حياضه ، من غير ان يهمه في قليل ولا كثير ، من يقاتله ولمن يظهر بأسه وشجاعته ؟ فالذين كانوا على مثل هذه الحال من الاخلاق ، كان ـ وينبغي ان يكون ـ من المستحيل ان يوجد فيهم نوع من الأمانة والاستقامة والولاء الثابت المنبعث من قرارة الأنفس وأعماق الصدور . واذا كان من السهل عليهم ان يبيعوا أنفسهم من أعداء دينهم وأمتهم ويساوموهم فيها ، فماذا عسى ان يكون من السبب لأن يبقى فيهم ضميرٌ حي قوي طاهر . ومالهم الا يسموا الارتشاء والغبن منحة ربانية وفضلاً من الله ، ومالهم الا يكونوا انتهازيين (Opportuisnts) يترقبون فرص التمتع والانتفاع ويستسلموا لكل قوة تظهر بمظهر الغلبة والعلو ؟ ومالهم الا يتخلفوا بأن يأتوا كل شيء يريده منهم من يسخو عليهم براتبهم غير آبهين لإيمانهم وضمائرهم ؟ ومن هنا . لكم ان تقدروا ان الصفات التي تظهرها بمظهرها اليوم أغلبية رجال

الطبقة الموظفة منا . ليست بضعف اتفاقي نشأ فيهم بين عشية وضحاها بل لها أصول راسخة وجذور مستحكمة في تاريخنا الماضي . إلا انه مما يدعو الى الأسف أن هذا الضعف الذي كان أعداؤنا يستغلونه بالأمس ، نرى اليوم زعماءنا القوميين يستخدمونه لأغراضهم ، ممن كان المرجو منهم أن يكونوا أساة لأدواء الأمة بدلاً من أن يستغلوها لأغراضهم .

وكذلك كان علماؤنا يشاركون الطبقة الوسطى في أمراضها الخلقية التي تقدم ذكرها آنفاً . ولا شك ان كان فيهم رجال من ذوي الاخلاق الفاضلة والطباع المستقيمة كما كان أمثالهم في الطبقة المتوسطة ، الذين عرفوا واجبهم حق المعرفة وبذلوا في أدائه مهجهم ولم تستطيع قوة من قوى العالم أن تساومهم في دينهم . إلا ان معظمهم كانوا من الجهالة الخلقية على مثل ما كان عليه رجال طبقتنا الوسطى . فكانوا ينالون الرواتب والجرايات من الحكومات ، وكان شعارهم أن يتعلقوا بأذيال أمير من الأمراء ، أو ملك من الملوك ، أو رجل من حواشيهم ، ويعبروا الدين ويؤولوا أحكامه وقوانينه كما يرضاه ويشتهيه ، ويقدموا أهواءهم الشخصية ومصالحهم الذاتية على الدين ومقتضياته ، ويستعملوا سلاح الدين تضييقاً على دعاة الحق وإرضاء لسادتهم وأولياء رزقهم وكان ديدنهم أن يتهاونوا في شأن المسائل الاساسية والمهمات الخطيرة ويشددوا في الفروع والجزئيات التافهة . ومن هنا كان شعورهم الديني مرهفاً غاية الارهاف لعامة الناس والذين لا نفوذلهم ولا سلطان ، فكانوا

لا يكادون يصفحون عنهم في التهاون في الأمور المستحبة وكم أوقدوا من نيران الخصومات والشقاق بين الامة لاجل أمثال تلك المسائل الفرعية التافهة . أما الأغنياء وأرباب الجاه والثروة ممن يملكون النفوذ والسلطة ، فظلوا لهم سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم ، رمزاً للمجاملة والمصالحة ، وأخرجوا لهم الرخص والتسهيلات لا في الفروع والجزئيات فحسب ، بل في المبادىء والاصول أيضاً .

أما أغنياؤنا فما كان ليهمهم في الدنيا ويشغل بالهم إلا شيئان : البطن والفرج . فلم يكن بعدهما شيء في الدنيا يستحق الالتفات والأهمية في نظرهم ، بل كانت جل مجهوداتهم مرتكزة حولهما منحصرة في سبيل خدمتهما ، وما كانت أموال الأمة وثروتها تنفق إلا في سبيل ترقية مهن وصناعات وحرف تقوم بنوع من الخدمة لهذين . فاذا بذل غني من الاغنياء ثروته وقوته في غاية أسمى وغرض أشرف ، حاول سائر الاغنياء مجتمعين إسقاطه والتنديد بمنزلته ولم يتحرجوا في المؤامرة مع أعداء الامة لإحباط مسعاه المحمود والتغلب على أمره .

الحالة الفكرية والعلمية :

ثم إذا استعرضنا ما كانت عليه حالتنا الفكرية والعلمية في هذه القرون ، ظهر أن باب التحقيق والاجتهاد العلمي كان موصداً عندنا إلى ما تركه لنا أوائلنا وأسلافنا والفكرة التي سادت وكانت لها جذور متأصلة في نظام تعليمنا ان كل شيء قد تم على يد أسلافنا ، هو آخر لبنة في بناء العلم والتحقيق ،

لا يضاف ولا يمكن أن يضاف اليه بعدها شيء أبداً . وان أعظم خدمة يمكن إسداؤها إلى الأمة هي أن يذيّل ما كتبه الأولون بحواش وشروح . يؤلفونها ويشتغلون بتدريسها . فلا نكاد نعثر في هذه القرون على اثر فكرة مبتكرة واختراع مبتدع واكتشاف جديد ، وبذلك طرأ علينا جمود فكري وغشى أجواءنا العقلية سحابة سوداء من العقم والتبلد . فالظاهر ان كل أمة ابتليت بمثل هذه الحال لا يمكن ان تطول بها الحرية ولا بد ان تغلب على أمرها أمة حية قوية كانت قد أحدثت اليقظة والنشاط في أبنائها ، وكان الشعور بالواجب يسود رجالها على حسب ما يفهمون من واجبهم وكان الولاء المستقل الخالص موجوداً في عاملها وزعمائها وأولي الامر منها ، وكان أهل العلم من أبنائها مخفقين مخترعين للقوى الجديدة ومستخدمين اياها في مختلف نواحي الحياة وشؤونها ، وكانوا مستمرين في التقدم الى الرقي والعلا في مختلف شعب المدنية والحضارة .

فاذا وجدت في الارض مثل هذه الامة الحية ، فالى متى كان من الممكن ان تبقى مالكة زمام الامر متصرفة في أمور البلاد أمةٌ قد ضربت عليها عوامل الجمود والانحلال الخلقي ، وتغلغلت في عروقها الجاهلية ؟ فما كانت هذه الكارثة التي ابتلينا بها حادثة مفاجأة ، بل ان قانون الفطرة هو الذي اقتضى ألا نحيا إلا تحت نير أمة من أمم أوربة الراقية .

*

أسس الحضارة الغربيّة

ولننظر الآن الى الأمة التي استولت علينا وخبطتنا بعصا قهرها وظللنا نرزح تحت نير عبوديتها مدة يسيرة من الزمن ، ماذا كانت تحمل من الآراء والافكار ؟ وماذا كان من نظرياتها ؟ وماذا كان من دينها وفلسفتها ؟ وماذا كان من مبادئها الخلقية ؟ وماذا كان من مظاهرها الثقافية والعمرانية ؟ وعلى أي أسس قامت سياستها ؟ ثم كيف أثرت فينا هذه الأمور كلها وإلى أي حد امتد هذا التأثير ؟ .

الدين : ان القرون التي كنا منحدرين فيها في انحطاطنا المتتابع ، كانت بلاد أوربة أثناءها تتحضر وتحاول الاستواء على سوقها معتمدة على حركة جديدة من البعث(Renaissance) وقد اصطدمت هذه الحركة منذ نعومة أظافرها ، بالدين المسيحي في العصور الوسطى ، ولم ينته هذا الاصطدام إلا بنتيجة مؤلفة ما اهلكت بلاد اوربة وحدها ، بل أهلكت الدنيا جميعاً . وتحرير الخبر ان المتكلمين المسيحيين القدماء كانوا قد أسسوا صرح عقائدهم الدينية وتصور الانجيل للكون

والانسان على نظريات الفلسفة والعلوم اليونانيين وبراهينهما ومعلوماتهما ، وكانوا يظنون انه اذا أصاب أساساً من هذه الأسس نوع من الخلل فلا بد ان ينهار الصرح كله ، وان يقضي معه على الدين نفسه . فما كانوا ليتحملوا نقداً او بحثاً يزعزع بنيان شيء من مسلمات فلسفة اليونان وعلومها ، او تفكيراً فلسفياً يأتي بفكرة أخرى لا صلة لها بهذه المسلمات وتدعو رجال الكنيسة الى اعادة النظر في علم كلامهم . وكذلك ما كانوا ليسمحوا بتحقيق علمي يظهر به خطأ جزء مما جاء به الأنجيل واعتقده المتكلمون في حقيقة هذا الكون ومنزلة الانسان فيه ، فكانوا يرون كل شيء من هذا الباب خطراً مباشراً على الدين وعلى كل ما بني على قواعده من نظام للمدنية والسياسية والاقتصاد . وعلى العكس من ذلك ، كان العاكفون على أعمال النقد والاختراع ، متأثرين بالنهضة الفكرية الجديدة وعواملها المحركة ، فكان يتراءى لهم عند كل خطرة ما كان في هذه الفلسفة وتلك العلوم – التي كان هذا النظام العتيق للعقائد والكلام قائماً على أسسها – من مواطن الضعف والوهن . ولكنهم كلما ازدادوا تقدماً في هذا المضمار ، مضمار التحقيق والنقد ، قاومهم وألقى العراقيل في سبيلهم رجال الكنيسة بمزيد من القوة والشدة مستخدمين كل ما كان بيدهم من النفوذ السياسي والديني . لقد كانت تتجلى لهم أمور تخالف الحقائق الثابتة المعتقدة في الزمن الغابر كالشمس في رابعة النهار ، ولكن أبى رجال الكنيسة ان يعيدوا النظر في ما اعتقدوه من آرائهم

وأفكارهم كالقضايا المسلمة وجحدوا بالحقائق النيرة الواضحة جحود الأعمى لضوء الشمس في رابعة النهار . وكذلك كان يتبين للاذهان التفكك والوهن في كثير من النظريات التي كانت في الزمن الغابر تعد براهين ساطعة على بعض عقائدهم ، ولكن أهل الكنيسة كان قولهم في ذلك ان تحطم الرؤوس المتفكرة في مثل هذه البراهين بدلاً من ان يراجعوا عقائدهم وينظروا في تلك البراهين نظرة التأمل والتدبر .

فأول ما أفضى اليه هذا النزاع أن نشأ في الاوساط التي تأثرت باليقظة العلمية الجديدة نوع من العداء للدين ورجاله من أول يومها . وكلما ازداد اضطهاد رجال الدين وتضييقهم ، ازداد هذا العداء نمواً وانتشاراً ، ثم ان هذا العداء لم يقف عند الديانة المسيحية وكنيستها فقط ، بل أصبح الدين ذاته هدفاً لعدائهم وغرضاً لنفورهم وصار من الفكرة السائدة ، عند حملة العلوم الجديدة ورافعي لواء الحضارة الحديثة ، أن الدين في حد ذاته ، إن هو إلا نوع من الدجل والتزوير ليس في وسعه ان يثبت أمام ضربة من ضربات الاختبار العقلي ، وإنما بنيت عقائده على الاذعان الأعمى والخضوع المحض من دون حجة ولا برهان ، وإنما يخاف على نفسه ازدياد نور العلم واتساع رقعة المعرفة لكيلا يفتضح أمره وتتضح للناس حقيقته .

ولما اتسعت دائرة هذا النزاع بعدما تجاوزت ميدان العلم ودخلت حقول السياسة والاقتصاد والنظام الاجتماعي ، وارتفع بقيادة حاملي لواء الحضارة الجديدة صرح لنظام الحياة الجديد

بعد سقوط الكنيسة وإنكسارها المبرم ، نتج عن كل ذلك أمران جديدان أثرا أبلغ تأثير في التاريخ الإنساني في العصور المستقبلة قاطبة :

١ ـ أن عزلوا الدين فعلاً عن كل شعبة من شعب نظام الحياة الجديدة وضيقوه في نطاق العقيدة الشخصية والأعمال الفردية ، وجعلوا من المبادىء الاساسية للحضارة الحديثة أن لا حق للدين في التعرض للسياسة أو الاقتصاد أو الاخلاق أو القانون أو العلوم والفنون والمعارف أو ما إليها من شعب الحياة الاجتماعية الاخرى وإنما هو شأن من الشؤون الفردية فحسب ، حيث أن للفرد ـ إذا شاء ـ ان يعتقد بالله ويؤمن برسله ويقتدي بهداهم في حياته الشخصية ، وأما الحياة الاجتماعية فلا يوضع ولا يُسيرَّ نظامها إلا بصرف النظر ـ صرفاً تاماً ـ عن الدين وتعاليمه .

٢ ـ ان تغلغلت في عروق الحضارة الجديدة عقلية الالحاد والتحلل عن قيود الدين ، ولذا فان كل ما حصل في هذه الحضارة من الارتقاء في العلوم والفنون والآداب قد وجد وما زال موجوداً في اصله ذلك العداء الذي تولد في بدء اليقظة العلمية للدين ولكل ما يتعلق به . فالحضارة التي رضعت بلبان مثل هذه الفكرة الخاطئة جعلت من وجهة الناس للتفكير ان كل شيء يأتي به الدين ، سواء أكان اعتقاداً بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة او مبدأ من المبادىء الخلقية والمعنوية ، فإنه عرضة للشك والارتياب ولا بد من شيء يثبت صحته ،

وإلا يجب الجحود به ونبذه نبذ النواة ، وبالعكس من ذلك كل ما يأتي من أساتذة العلوم والفنون الدنيوية الحديثة ، فهو جدير بالقبول والاستحسان والتسليم ، اللهم ان يأتينا شيء يفنده ويثبت خطأه . وقد أثر هذا الطراز الجديد للتخيل والتفكير تأثيراً بالغاً شاملاً في نظام الفكر والدراسة والبحث في البلاد الغربية ، وهو لم يحرف عن الوجهة الدينية العلوم والآداب والفنون وحدها ، بل نرى أن كل ما بني على أسس هذا النظام الفكري الجديد من فلسفات ونظم للحياة الاجتماعية ، لا مسحة عليها لتصور العبودية لله وفكرة الحياة الأخروية .

فلسفة الحياة : هذا ما كان للحضارة الغالبة من الوجهة في باب الدين وعقائده . فانظر الآن ما كان لهذه الحضارة من فلسفة للحياة اختارتها بعد إفلاتها من قيود الدين .

فهي فلسفة مادية بحتة . ما كان زعماء الفكر في الغرب ليؤمنوا بحقيقة غيبية وراء المحسوسات ، ولا كان من الممكن ان يكون لهم وسيلة إلى معرفة الحقائق الغيبية وإدراكها حق الادراك إلا الوحي والالهام ـ وكانوا من الجاحدين بهما ـ و ـ إلى هذا وذاك ـ كانت الروح العلمية الجديدة تمنعهم ان يحدثوا بأنفسهم بناء تصور عن الحقائق الغيبية على مجرد القياس والتخمين ، بل إنهم كلما حاولوا ذلك لم يتماسك بنيانهم الذي بنوا في وجه النقد العلمي . فهكذا لما لم يتجاوزوا حدود الشك واللاأدريـة في باب الحقائق الغيبية ، ما وجدوا أمامهم سبيلاً لمعرفة حقيقة الدنيا وحياتها إلا التعويل على الحواس ، مما جعل

فلسفتهم عن الحياة فلسفة سطحية بحتة . فقد زعموا ان الإنسان ان هو إلا نوع من البهيمة قد وجد على ظهر الارض ، فما هو بمنقاد لأحد ولا متبع له ولا مسؤول أمامه وهو لا يتلقى الهداية من فوقه . فعليه أن يتلقى هذه الهداية بنفسه ، وان كان لهذه الهداية من مصدر ، فانما هو القوانين الطبيعية او معلومات الحياة البهيمية او تجارب التاريخ الانساني الفارط . وقالوا إن هي الا حياتنا الدنيا نحيا و نموت ، فالفوز بنعيم هذه والحصول على رفاهيتها هما عين المقصود من جهود الانسان ؛ ولا تتوقف سعادته أو شقاؤه إلا على نتائجهما الحسنة أو السيئة . وقالوا إنما تنحصر الحقيقة في الأشياء التي تقع تحت الحس او الوزن أو الكيل أو القياس ، فكل شيء لا يكون من هذا النوع ، لا حقيقة له ولا قيمة .

لست هنا بصدد أن أذكر لكم تلكم النظم الفلسفية التي اخترعت في الغرب ، ودونت في الكتب ، وما زالت دروسها تلقى في الجامعات ، وانما أنا ذاكر لكم ذلك التصور للحياة الذي اقبلت علية الحضارة الغربية و نمت وترعرعت على أصوله ، والذي رسخ في أذهان عامة أهل الغرب ومن تأثر بحضارتهم من أهل الأرض . فخلاصته ما قد ذكرت لكم آنفاً .

وكذلك نشأت وترعرعت في الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أي عندما كانت شعوب أوربة المختلفة مشتغلة باستعبادنا ــ ثلاث نظريات فلسفية مهمة أخرى ، واستولت ــ بروحها اذا صرفنا النظر عن تفاصيلها ــ على الحضارة والثقافة

الأوربية قاطبة . وسأخص هذه النظريات الثلاث بالذكر في هذا المقام فانها أثرت في الحياة البشرية تأثيراً بالغاً شاملاً لا يعرف مثله لأي نظرية فلسفية أخرى .

هيجل وفلسفته للتاريخ :

فالنظرية الأولى هي التي عرضها هيجل بصدد التعبير عن التاريخ البشري . وخلاصتها أن كل نظام للحضارة في عصر من عصور التاريخ إنما يكون مبناه ، بجميع شعبه وصوره على أخيلة خاصة تجعله في العالم عصراً للحضارة والمدنية . فاذا أدرك هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الاخلال والتداعي في بنيانه ، فهناك تتنفس وترفع الرأس أخيلة وأفكار جديدة أخرى تصارعه ، ولا تنتهي هذه المصارعة إلا بعصر جديد من الحضارة والمدنية يكون فيه بقايا من الانقاض الصالحة للعصر المنقرض ، كما تتولد فيه حسنات ومحامل جديدة بحكم تأثير الأفكار الغالبة التي أغارت على عصر الحضارة المنقرض وارغمته على المسالمة . ثم إذا أينع هذا العصر أيضاً وأدركت ثماره ، تتولد منه طائفة أخرى من الأفكار المخالفة ويحمى وطيس الحرب والنزاع بينها وبين هذا العصر حتى يتكون بمصالحتها عصر ثالث للحضارة والثقافة فيه البقايا الصالحة للعصر السالف ، ولكن تنجذب اليه محاسن جديدة أخرى تأتي بها الأفكار الجديدة .

فهذا التفسير لرقي الحضارة البشرية الذي جاء به هيجل قد أدركت منه العقول عامة أنه لم ينقرض عصر من عصور التاريخ

الماضية إلا لأجل ما كان يتضمن في نفسه من النقائص والعيوب ومواطن الضعف والتزعزع ، وقد ترك ما كان فيه من المحاسن في العصر التهذيبي الذي أتى بعده ، وبكلمة أخرى ان العصر التهذيبي الذي نجتازه الآن ، هو خلاصة جميع ما كان في العصور الماضية من عناصر الصلاح والخير ، فان كان في وجهنا اليوم سعة للرقي ، فانما هي في الأفكار الجديدة التي ترفع رأسها لمصارعة الأفكار الاساسية لهذا العصر الجديد ، وليس في العصور المنصرفة شيء نلتفت اليوم إلى الوراء مستهدين منه ومسترشدين إياها في نواحي حياتنا ، فان أجزاءه التي لم تنضم الى حضارة العصور التي جاءت بعده قد رفضها التاريخ الانساني ، ونبذها وراء ظهره بعد اختبارها واستنقاصها وانه إذا كان ذوقنا التاريخي اليوم يجل قدر شيء منها ويعرف له قيمته ، فمن حيث انه كان شيئاً ذا قيمة في حينه وأدى واجبه للانسانية والارتقاء بحضارتها ، ولكنه لم يعد في هذا العصر الجديد شيئاً يستحق القدر أو ان يكون مطمحاً لأنظارنا ، فان التاريخ قد حكم عليه بما حكم من قبل .

انظروا ما أضل هذه الفلسفة وما أشد خطرها في حقيقة الامر . فهل ترجون ممن يكون قد رسخ في ذهنه مثل هذا التصور للتاريخ الانساني ، أن تبقى في قلبه أثارة من القدر أو ذرة من الاجلال للعصور التي مضى فيها إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين وغيرهم من رسل الله وأنبيائه الأجلاء الأكرمين ؟ فهل يرجع مستهدياً الى عهد النبوة والخلافة

الراشدة ؟ والحق إن هذه الفلسفة هي حملة فكرية منظمة مدججة بالبراهين والحجج تكاد تأتي الفكرة الدينية من أساسها إذا أصيبت فكرة رجل بضربتها الفتاكة .

داروين ونظريته في التطور الانساني :

والفلسفة الثانية التي ظهرت واستولت على أذهان الناس وعقولهم في القرن التاسع عشر ، أحدثتها نظرية التطور . لداروين. وإني لا أتناول بالبحث في هذا المقام وجهتها الحيوية (Biogicia) وإنما أتناول بالبحث آثارها الفلسفية التي جاءت من طريق استدلال داروين ونتائجه المستنبطة ثم انجذبت الى الفكرة الاجتماعية الواسعة . فالتصور الذي تأصل في الذهن الانساني عامةً للكون ، متأثراً بنظريةالتطور هذه ، أنه مضمار للمصارعة والمنازعة لا تزال الحرب قائمة فيه في سبيل الحياة والبقاء ، وأنه من نظام الفطرة ان كل من أراد الحياة والبقاء ، فعليه بالكفاح والمصارعة . كما ان من طبيعة الفطرة أنه لا يستحق البقاء في نظرها إلا من أثبت قوته ، فكا من يفنى في هذا النظام القاسي ، فانما يفنى لأنه ضعيف يستحق الفناء ، ومن يبقى فانما يبقى لأنه قوي من حقه البقاء . فالارض وما فيها ووسائل الحياة بها ، لا يستحقها إلا القوي الذي يثبت أهليته للبقاء والحياة ، ولا حق للضعيف في هذه الاشياء ، وعليه أن يخلي المكان للقوي ، والقوي على حق تماماً إذا أخذ مكان الضعيف بعد إزاحته عنه أو قضائه عليه .

تأملوا قليلاً أنه إذا رسخ هذا التصور الخاطىء للكون في

اذهان الناس وعقولهم ونظروا إلى نظام الفطرة بهذه النظرة فماذا تكون علاقة الانسان بانسان مثله؟ وماذا يمكن أن يكون في هذه الفلسفة للحياة من قيمة لأغراض سامية وعواطف شريفة كالمواساة والتودد والمرحمة والإيثار ؟ أفتجدون عليها مسحة من العدل والامانة والعفاف والصدق والإخلاص ؟ أفترون فيها من بقية لمدلول كلمة « الحق » الذي قد يناله الضعيف ولمدلول كلمة « الظلم » الذي قد يُحكم لأجله على القوي بالاثم والعقوبة ؟ لا شك أن الانسان ما زال يتحارب منذ أول عهده بهذه الدنيا ، ولكن كانت فعلته هذه تسمى بالفساد والعدوان والبغي ، وقد أصبحت الآن من صميم ما تستدعيه الفطرة ، لأن الكون إن هو إلا مضمار للمصارعة بحكم هذه النظرية . والظلم ما كان شيئاً معدوماً في أي زمن من الازمان ولكنه كان ظلماً ، وقد ظفر الآن بمنطق جعله حقاً مشروعاً للقوي . الحقيقة هذه الفلسفة هي التي جعلت في أيدي رجال أوربة حجة قوية سوغت لهم كل ما أذاقوا أمم الارض المستضعفة من ضروب الظلم والعدوان ، فإن كانوا استأصلوا شأفة الشعوب القديمة والسلالات المتوغلة في القدم في أمريكة واستراليا وأفريقية واستعبدوا الامم الضعيفة ، فلأنه كان كل ذلك من حقهم الذي نالوه بموجب قانون الفطرة نفسه وأن الذين انقرضوا ، كانوا يستحقون ذلك . ولعمر الحق لو كان بقي في ضمائر أهل الغرب شيء يخالج ضمائرهم ، فقد أزاله دارون بحججه وشواهده ومهما يكن لهذه النظرية من منزلة في العلوم الطبيعية ، فقد حولت الانسان ذئباً مفترساً لاخيه في ميادين الاجتماع والمدنية والسياسة .

تفسير ماركس المادي للتاريخ :

ومن نوع هذه الفلسفة كانت فلسفة أخرى تولدت من بطن « تفسير ماركس المادي للتاريخ » وإني لا أتناول هنا بالبحث تفاصيل هذه الفلسفة ودلائلها ، ولا أنتقد عليها مكانتها العلمية . وإنما أريد أن أبين لكم أن هذه الفلسفة ما زودت ذهن الانسان إلا بنفس ما زوده به هيجل أولاً وداروين بعده من تصور للحياة الدنيا ، فقد جعل هيجل العالم الفكري ميداناً للصراع ، وجاء داروين وقدم نظام الفكرة كميدان للحرب ، ثم جاء بعدهما ماركس وصور المجتمع البشري بنفس هذه الصورة . فكل ما يتراءى لنا في هذه الصورة أن الانسان ما زال محارباً منذ أول أمره لأغراضه ومصالحه الشخصية ، وأنه ما انقسم إلى مختلف الشعوب والقبائل والطبقات إلا لاجل ما كان في نفسه من أثرة وحب لذاته ، وما نشب ما نشب بين هذه الطبقات والشعوب المختلفة من الحروب والمنازعات إلا لاجل هذه الأثرة الذاتية ، وما رزق من نمو وارتقاء إلا بفضل هذه المصارعة الطبقية والأغراض المترتبة على الاثرة وحب الانسان لذاته . وكذلك يخيل لنا من هذه الصورة ان كل ما يحدث بين طبقات أمة واحدة ـ فضلا عن مختلف الامم والشعوب ـ من المحاربة ، إنما هو من عين ما تتطلبه الفطرة الانسانية . وكذلك يظهر لنا في هذه الصورة انه إذا كان بين الانسان علاقة ما ، فانما هي علاقة اشتراكهما في الاغراض والمصالح ، وأن اتصال المرء بأقاربه وحربه معهم للذين تتصادم أغراضه وأغراضهم الاقتصادية ولو كانوا من

أبناء أمته ودينه هو من صميم الحق والصواب . بل ان اجتنـاب الانسان ركوب هذه الفعلة ـ وعدم إتيانه إياها ـ مخالف للفطرة .

الاخلاق : تلك هي الفلسفات والعقائد والافكار . التي رافقت الحضارة الغالبة واستولت علينا . وانظروا الآن ما جاءنا به هؤلاء الواردون من النظريات والمظاهر العملية في باب الاخلاق والمعنويات .

من الظاهر أن الاخلاق لا تبقى لها قيمه غير القيم المادية ولا أساس غير الأسس التجريبية إذا نُبذ الايمان بالله واليوم الآخر وراء الظهور . وأنه إذا أراد أحد في هذا الباب أن تبقى القيم التي جاء بها الدين . قائمة على أساس غير أساس الدين أو تبقى المبادىء الخلقية التي تعلَّمها الانسان من تعاليم الانبياء والرسل تسير في الحياة البشرية مستندة إلى غير « الايمان » فلا يمكنه ذلك ابداً . ومن ثم قد باء بالفشل كل من حاول ذلك من أهل الغرب . فالفلسفة الخلقية التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني وجحود الآخرة وراجت رواجها في حقيقه الامر في حياة أهل الغرب فعلاً . إنما كانت فلسفة النفعية (Utilarism) المخصة التي امتزجت بها نزعة مادية بسيطة من فلسفة اللذة (Boicu rianism) . فعلى هذه الفلسفه أسس بناء المدنية والحضارة في الغرب . ومهما أبدع القوم وأعادوا في شرح النفعية وفلسفة اللذة في كتبهم . فان جوهرها الذي انجذب إلى حضارة الغرب وسيرتهم وأوضاعهم العملية . هو انه إن كان في الدنيا شيء يستحق القدرَ . فانما هو ما يعود بالنفع على « نفسي » او على

« وطني وشعبي » اذا وُسِّع قليلاً في تصور « نفسي » . والمراد بهذا النفع – النفع الدنيوي – لذة من اللذات او منفعة من المنافع المادية . فكل شيء لا يرجع منه على نفسي او على وطني وشعبي نفع مادي يقع تحت الحس أو الوزن أو الكيل ، لا يستحق أن يقام له أي وزن ويلتفت اليه وبالعكس من كل ذلك كل ما كان مضراً من الوجهة الدنيوية أو كان مما يحرم الانسان من المنافع واللذات العاجلة . فهو الشر وهو الاثم الذي يجب اجتنابه .

فهذه الاخلاق ليس فيها مقياس مستقل للخير والشر ، وليس لحسن الأعمال وقبحها مبدأ قائم بذاته . فكل شيء فيها موقت نسبيّ . ويمكن أن يوضع وينقض فيها كل مبدأ في سبيل المنفعة الذاتية أو القومية . ويجوز فيها التشبث بكل ذريعة مهما بلغت من الشر للحصول على الغاية . ويسوغ فيها الظفر بالمنافع واللذات بأي طريق من الطرق ، فالذي هو الخير اليوم قد ينقلب الى الشر غداً والذي هو الشر اليوم قد يتحول الى الخير غداً . ويختلف فيها معيار الحق والباطل باختلاف الافراد ، ومن التصور البالي الذي اكل الدهر عليه وشرب وجعلته مواكب الرقي من بقايا الجمود والرجعية – بموجب هذه الاخلاق – ان يكون عند الانسان تمييز مستقل بين الحلال والحرام يراعيه في كل حال أو فارق أبدي بين الحق والباطل لا يتغير في أي حال من الأحوال .

السياسة : هذه هي الأوضاع الخلقية التي دخلت في بلادنا واسترهبتنا واستولت علينا . فلنتناول الآن ذلك النظام السياسي

الذي أقيم في بلادنا وشبّ وترعرع تحت اشراف سادتنا الغربيين وزعامتهم . فقد أسس بنيان هذا النظام على مباديء ثلاثة : اللادينية (Secularism) والقومية (Natio nalism) والديمقراطية (Damoeracy) .

والمراد بالمبدأ الأول أن لا علاقة للدين بالمبدأ الاول ولا لإلهه ولا لتعاليمه بشؤون الانسان السياسية والاجتماعية ، وأن الأمر في شؤون الدنيا ومعاملاتها كلها لا يرجع إلا الى الناس أنفسهم ، فهم الذين يسيرون على مشيئتهم يضعون لتسييرها المبادىء والقوانين والنظريات والمناهج ، ولا حق لله ان يتدخل في هذه الشؤون ولا حاجة بنا إلى أن نسأله عما يحبه أو لا يحبه . غير انه اذا جد بنا الأمر وأصبنا بمصيبة عظيمة ، فلا ينافي « اللادينية » أن ندعو الله ونستغيثه لأنه يجب على الله مثل هذه الحال أن يأخذ بيدنا ويكشف عنا هذه المصيبة .

والمراد بالمبدأ الثاني ان يُحلّ الشعب منزلة الألوهية ، ولا يكن للخير والشر من مقياس الا مصالح الشعب وحده ، ولا يكون المنشود من وراء الجهود الا ترقية الشعب واعلاء كلمته ورفع شأنه وتسليطه على سائر أمم الارض وشعوبها . وأن كل تضحية يقوم بها الافراد في سبيل الشعب هي الجائزة لهم والواجبة عليهم . ثم ان نظرية القومية التي أوردها سادتنا الغربيون الى بلادنا ، كانت نظرية القومية الوطنية اللادينية التي اذا اختلط بها مبدأ « القومية » اصبح ضغثاً على ابالة بحقنا على الأقل ، لأن بلادنا الهندية كانت ثلاثة ارباع من سكانها من

غير المسلمين ، فقد جعلنا مبدا « القومية » على اساس « الوطنية » بين امرين : إما ان نرتد على اعقابنا عن ديننا الاسلام متحمسين ، لديانتنا الجديدة أو نعيش في البلاد كافرين أي خارجين على الوطن بموجب ديانة القومية الوطنية .

والمراد بالمبدأ الثالث ان المحل الذي أبعد عنه الدين في الدولة القومية ، يجب أن يُمكن منه جمهور الأمة أي رأي اغلبيتهم . فكل ما حكم عليه الرأي العام في البلاد بالحق ، بصرف النظر عن الدين ، فهو الحق ، وما حكم عليه بالباطل ، فهو الباطل . فلا تدين الأمة إلا بما تضعه أغلبية السكان من المباديء والقوانين والضوابط ، ولا يحل إلا لأغلبية السكان أن تغير وتبدل في هذا الدين .

*

آثار الحضارة الحاكمة

فتلك هي السياسة والاخلاق والفلسفات والنظريات في الدين . للذين جاؤوا من الخارج واستولوا علينا في مرحلة نحسة من مراحل تاريخنا . وقد عرفتم من قبل ما كنا فيه إذ ذاك من مواطن الضعف وقد فصلت لكم آنفاً الحضارة التي جاءنا بها هؤلاء الفاتحون . والظاهر أن هذه الحضارة ما جاءتنا بحيث قد جاءت بها طائفة من السائحين وأبناء السبيل ، بل الذين جاؤوا بها كانوا حاكمين لبلادنا ومتصرفين في حياتها تصرفاً لم يكتب مثله لحكومة من الحكومات قبلهم ، واستولى لهم على قلوب اهلها رعب ـ مادياً ومعنوياً ـ لعله لم يستول مثله على قلوبهم لطائفة من الطوائف الحاكمة قبلهم ، وكانت بأيديهم الوسائل الواسعة للنشر والدعاية والتعليم والآلات النافعة كالقانون والقضاء وكان نفوذهم السياسي في الوقت نفسه قد وضع يده على وسائل المعاش كلها وشد عليها القبض وأحكمه . فلأجل كل ذلك قد أثرت فينا حضارتهم تأثيراً شاملاً محيطاً لم تسلم من بطشه أي شعب من شعب حياتنا .

تأثير الثقافة الغربية : فقد فرضوا علينا الثقافة الغربية بل

استولوا على مفاتيح الرزق وعلقوها على ابواب معاهدهم ، مما كان معناه انه لن ينال الرزق في البلاد الا من يتلقى هذا التعليم فأقبلت على معاهدهم تحت هذا الضغط الاقتصادي ناشئتنا إقبالاً هائلا ، حتى لقد كانت كل سلالة جديدة منا أسرع اليها من سابقتها ، وتعلمت فيها جميع النظريات والمظاهر العلمية التي كانت بروحها وشكلها مناقضة لثقافتنا . لا شك أنهم ما استطاعوا أن يردوا منا أحداً على عقبه كافراً يجهر بارتداده عن الإسلام ، ولكن لا اخال أنهم تركوا حتى اثنين من مائة رجل منا على اسلامهما الخالص من حيث الفكرة والنظر والوجدان والذوق والسيرة والاخلاق والاعمال . فهذا هو الضرر الفادح الذي قد ألحقوه بنا ، فقد نشفوا جذور ثقافتنا في قلوبنا وأذهاننا وغرسوا فيها وأصلوا جذور الثقافات الاجنبية الاخرى .

تأثير النظام الاقتصادي : وكذلك فرضوا علينا نظامهم الاقتصادي مع فلسفتهم ونظرياتهم الاقتصادية . حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مبادىء هذا النظام الاقتصادي . فهذا ما جعلنا آكلين للسحت أولاً . ثم محا من أذهاننا ما كان فيها من تمييز بين الحلال والحرام حتى بلغ بنا الامر انه لم يعد كثير منا يسلمون بتعاليم الإسلام حتى حرّم فيها كثيراً من الطرق المشروعة أحلها نظام الغرب الإقتصادي .

تأثير القانون : وكذلك فرضوا علينا قوانينهم . ولم يبدلوا بها صورة نظامنا الاجتماعي والمدني فعلا فحسب . بل جاؤوا

بتغيرات هائلة في تصوراتنا الاجتماعية ونظرياتنا القانونية ايضا . فكل من له أدنى معرفة بالقانون ، يعلم أن القانون له صلة وثيقة بأخلاق الناس ومجتمعهم . فاذا وضع الانسان قانونا من القوانين ، فلا بد أن تكون وراءه فلسفة من فلسفات الاخلاق والاجتماع المدنية ، وأن يكون نصب عينيه صورة خاصة يريد أن يفرغ في قالبها الحياة الانسانية قاطبة . وكذلك إذا نسخ الانسان قانوناً من القوانين ، فكأنه نسخ النظرية الخلقية والفلسفة المدنية التي كان ذلك القانون مستنداً اليها ، وبذل صورة الحياة التي كانت مستمدة من ذلك القانون . فلما نسخ حكامنا الانجليز ما كان رائجاً جارياً في بلادنا من القوانين الشرعية ونفذوا مكانها قوانينهم الجديدة ، فلم يكن معنى ذلك أنه مضى قانون وحل محله قانون آخر فحسب ، بل كان معنى ذلك أنه قد اقتلع من أرض هذه البلاد نظام للأخلاق والمدنية وأسس مكانه نظام آخر للاخلاق والمدنية . ثم أجرى الانكليز في كليات حقوقهم تعليمهم القانوني ليحكموا هذا التغير الذي جاؤوا به في الاخلاق والمدنية . فذلك التعليم هو الذي خيّل إلى شبابنا والقى في روعهم ان القانون الغارط كان قانونا بالياً اكل عليه الدهر وشرب لا يمكن ان يساير مجتمعا في الزمن الحاضر ، وأن هذا الطراز الجديد لوضع القانون ، بكل ما فيه من المبادىء والنظريات ، وهو أصوب منه واكثر ملاءمة لعهد الرقي الجديد . ثم لم يقف الامر عند هذا الحد فحسب ، بل قد زعزع الانكليز عقيدتنا الاساسية القائلة بأن حق التشريع

مختص بالله وحده . والقوا في روع الناس ان لا علاقة لله بهذا الشأن . بل الامر كله يرجع إلى المجلس التشريعي . يجعل ما يشاء فرضا او واجبا أو حلالا او حراما او جريمة . وحسبكم شاهدا على مبلغ تأثير هذه القوانين الجديدة في اخلاقنا ومدنيتنا انها هي التي احلت الزنا والخمر والميسر وكثيراً من البيوع الفاسدة . وراجت تحت كنفها أنواع المنكرات والمعاصي في هذه البلاد . وحرمت من حمايتها وظلت تنفرض وتمحي كثير من الخيرات والحسنات التي قد كان بقي لها باقية ما إلى عصر انحطاطنا . إلا ان الاوضاع الجديدة كأنها فلّت من حد شعورنا الديني . حتى لم يعد كثير من اتقيائنا وصلحائنا يرون بأساً في أن يتولى فرد من أفراد المسلمين منصب القضاء او المحاماة في هذا النظام القانوني الجديد . بل آل بهم الأمراء إلى ان يحكموا بالخارجية على من دعا الناس إلى مبدأ « الحكم لله » واراد ان يحيي هذا المبدأ في اذهانهم .

تأثير الاخلاق والاجتماع : وكذلك فرضوا علينا مفاسدهم الخلقية وعاداتهم الاجتماعية . بحيث ظل مقام التقرب اليهم وشرف التقدم لديهم خالصاً للذين كانوا مثلهم في الاخلاق « واصطبغوا بصبغتهم في العشرة . وقد كان التقرب اليهم ونيل الحظوة عندهم هو الضامن للناس بالنفوذ والرفاه الاقتصادي والرقي المادي . فتدرجت طبقاتنا العليا وعلى أثرها طبقاتنا الوسطى . تصطبغ بصبغتهم وأخيراً أخذت الصور الخليعة ودور السينما والاذاعة والمثل الحية من كبار الناس ورؤسائهم

تشيع هذه الفاحشة في العامة والدهماء . وكان من نتيجة كل ذلك أن تدرج بنا الامر في قرن واحد إلى أن بدأنا نتحمل التعليم المختلط بين الشبان والفتيات ولا نضيق به ذرعاً .

تأثير النظام السياسي : وكذلك فرضوا علينا نظرياتهم ونظمهم السياسية التي لم تكن لديننا ودنيانا أقل ضرراً من شيء آخر . فقد زعزعت نظريتهم اللادينية كياننا الديني وكادت تأتي تصوراتنا وعقائدنا الدينية من القواعد ، وما زلنا نرزح ، طوال قرن كامل ، تحت نظريتهم القومية والديمقراطية ، حتى لم نجد بداً من الاقتناع بأن ننفذ من شقي الرحى نصف أمتنا ونضحي في سبيل إنقاذها بمئات الالوف من نفوسنا وإعراض عدد عظيم ـ لا يأتي عليه الاحصاء ـ من نسائنا . ولم يصرف هؤلاء الحمقى الغلاظ الاكباد ولا دقيقة واحدة من أوقاتهم ليتفكروا في حال هذه البلاد ويعلموا أن هناك الهند ومسلميها وسيكها ومنبوذيها لا يمكن أن يؤلفوا جميعاً في هذه الأرض شعباً واحداً بالمعنى السياسي الجديد حتى يطبق عليه مبدأ الديمقراطية القائل بأن التشريع والحكم للأغلبية ، وعلى الاقلية أن تهيء الرأي العام وتنوره لنفسها حتى تتحول به إلى الأغلبية . ولم يبذلوا أي جهد ليعلموا أن أغلبيات هذه البلاد وأقلياتها أغلبيات وأقليات قومية وما هي بأغلبيات وأقليات سياسية . لقد كانت ترجع اليهم المسؤلية عن حاضر ٣٥٠ مليون نسمة من البشر ومستقبلهم ، ولكنهم لم يصرفوا لحظة من أوقاتهم ليدركوا أن لا معنى لاقامة النظام الديمقراطي اللاديني

في بلاد الهند ـ زعماً منهم أن جميع ما في هذا القطر من الأمم إنما تؤلف شعباً واحداً ـ إلا أن تقضي أمة كثيرة العدد منها بقهرها وعنفها على أديان سائر الأمم وثقافاتها ومقوماتها القومية ، بل انهم ما فتئوا يطبقون مبادئهم ونظرياتهم ومناهجم العملية في بيئة كانت مختلفة عن بيئتهم كل الاختلاف .

انه ما زالت كل بقعة من بقاع أرض الهند تنبىء ، طوال السنين والأعوام ، بكل ما أخرجت من بطنها من سم التباغض ودماء المظلومين وضرام التطاحن الطبقي ، بأن هذا النظام الذي لا يلائم فطرة أهل هذه البلاد ويفرض على سكانها قسراً ، نظام باطل خاطىء من أساسه ، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك أصلا . فكان من نتيجة ذلك ان أصبح الجيران بعضهم لبعض أعداء متباغضين ، ولكنهم لم يشعروا بأي حاجة الى اعادة النظر في خطتهم المعوجة هذه . ثم لما بلغ الأمر حيث لم يجدوا بداً من تقسيم البلاد ، غادروا البلاد بعد ان قسموها بطريق جعل أنهار الدماء وجبال الجثث هي التخوم القائمة بين الهند وباكستان . وبذل أن يكون هذا التقسيم صورة للقضاء في المشاكسات والمناوءات الماضية ، اصبح أساساً لمشاجرات جديدة كثيرة لا يدري الا الله الى متى تشغل أهل هذه البلاد بعداوتهم وبغضائهم .

وإني أعترف بأن هؤلاء الحكام الاجانب قد جاؤوا بأعمال نافعة في البلاد ، ولا أنكر ما لهم من يد في ترقية بلادنا من الوجهة المادية ، حيث قد استفدنا كثيراً من الجوانب

النافعة لعلومهم الجديدة ، ولكن اين هذه المنافع من تلك المضار الخلقية والمعنوية والمادية التي أصابتنا بسلطتهم وعلو كلمتهم والتي لا يحصيها الا الله ؟

*

تجاوبنا مع الحضارة الغربيّة

هذا ، ولنا أن نستعرض الآن كيف وبأي صورة ظهر ما ظهر عندنا من التجارب لهجوم هذه الحضارة الغالبة ؟ وماذا يوجد اليوم في حياتنا القومية من آثاره الحسنة والسيئة ؟ .

فاذا تعرضنا للواقع بنظرة عمومية شاملة ، وجدنا أن تجاوبنا لهذه الحضارة ظهر بصورتين مختلفتين ترتبت ولا تزال تترتب على كل منهما آثار بعيدة . فأريد أن أفصل كل واحدة منهما على حدة . ثم أبين لكم ماذا كان من تأثيرهما المشترك في المجتمع

التجاوب الانفعالي : وكان تجاوب (Reaction)[1] ذلك عند طائفة منا ان قالوا خذوا من هذه الامة القوية الراقية كل ما تعطيكم وتأثروا بآثارها واقتنوا ثقافتها . وانجذبوا إلى نظامها الاقتصادي واستسلموا لقوانينها واصطبغوا بنظامها الاجتماعي وأذعنوا لنظامها السياسي .

فكان الاستسلام والخضوع طبيعة هذا التجاوب منذ أول أمره . غير أن الذي دفع الناس إلى هذا التجاوب الانفعالي هو ان قالوا لا قبل لنا بالمقاومة بعد ما غلبنا على أمرنا واستولى علينا غيرنا ، واننا إذا حاولنا المقاومة ، بؤنا بالفشل والخسران

من كل وجهة ، فلا بد لنا إذن أن نستفيد من كل فرصة من فرص الرقي والحياة تسنح لنا في هذا النظام الجديد ولكن الذين تأثروا منا بهذا الدليل ـ وهو دليل قوي في حد ذاته ـ وسلكوا هذا الطريق بدأ يظهر في أول نسلهم من السيئات والمفاسد ما لا بد أن تبتلي به كل أمة تختار سلوك طريق الاستسلام والقبول والخضوع بازاء حضارة أجنبية معادية ، ثم تعاقبت السلالات وكانت كل سلالة متأخرة منها أكثر ابتلاء بهذه المفاسد من سابقتها ، حتى أحاط هذا الداء بطبقتنا العليا والوسطى من كل جهة ، الا من رحم ربك ، وما زال سمه يسري الى جمهورنا اقتداء منهم بكبريائهم وتأسياً بأسوتهم .

وقد قبلت الأغلبية العظيمة من رجالنا المثقفين بهذه الثقافة الجديدة متعلمينا الجدد بدون أدنى ارتياب ما كان لأهل الغرب من وجهة نظر في الدين . ولم يشعروا بأن الغرب انما فهم عن الدين بنظره الى المسيحية وكنيستها لا بنظره الى الاسلام . وكذلك تلقوا بالقبول والاستحسان ما كان نشأ في الغرب من وجهة للنظرة والفكرة عن الدين والشؤون المتعلقة به بعدما حصل ما حصل من المصارعة بين الكنيسة والنهضة العلمية . وحسبوا أن الاسلام وكل شيء فيه مظنة لكل شك وارتياب . فان كنا في حاجة إلى البرهان والدليل فلإثبات أمر من أمور الدين لا لإثبات تلك النظريات والأفكار التي يكون قد عرضها باسم العلم فيلسوف من الفلاسفة أوعالم الطبيعيات والعمرانيات في الغرب . وكذلك استسلموا استسلاماً كلياً لنظرية الغرب القائلة

بأن ليس الدين الا شأناً من شؤون الناس الذاتية لا ينبغي أن يكون له أي صلة بحياتهم الاجتماعية ونزلت هذه النظرية منزلا في قلوب الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية ، حتى نشاهد اليوم كثيراً من الذين يعيدون بالسنتهم الكلمة السائدة ان الإسلام نظام للحياة شامل ويشيدون بها دائماً من غير فكرة ولا روية ، يشهد لنا كل عمل من أعمال حياتهم بأن ليس الإسلام إلا ديناً شخصياً للأفراد لا حاجة لهم أن يسترشدوه في شؤونهم العامة ، بل لم يكن الإسلام لا كثرهم ولا ديناً شخصياً ، فإن حياتهم الشخصية لا نرى فيها ـ بعد الاقرار بالإسلام وأداة بعض المراسيم الوراثية كالختان وعقد الزواج ـ شيئاً ينم على أتباعهم للاسلام في الأخلاق والأعمال . والذين بقي أو نشأ فيهم من هؤلاء القوم ميال إلى التدين ، فغاية ما كان من مظهره عندهم أن آمنوا بالغرب وفلسفاته ومظاهره العملية مقياساً للحق ثم بدأوا يعالجون الإسلام وعقائده ونظام حياته وتاريخه ، وحاولوا أن يبذلوا كل شيء منها حتى يسهل عليهم عرضه على الدنيا وفقاً لهذا المقياس ، وينفوا عن الإسلام ما تعذر عليهم تبديله أو يتعذروا إلى الدنيا عن وجوده في الإسلام إن لم يستطيعوا نفيه عنه .

وكذلك تلقى أكثرهم بالقبول ما جاء به الغرب من فلسفة للحياة وأسس فلسفية للحضارة الغربية ولم يشعروا بحاجة إلى انتقاء شيء منها . وما كل ذلك من لوازم الثقافة التي نشأوا عليها منذ المدارج الابتدائية إلى المراتب النهائية في مدارسهم

وكلياتهم . ولا غرو فان الطراز الذي انتهجوه في دروسهم للتاريخ والفلسفة والاقتصاد والسياسة والقانون وما إليها من العلوم الأخرى ، ما كان لينشيء فيهم إلا نفس الفكرة والعقلية التي كان عليها أساتذتهم الغربيون ، وكان من المستحيل أن تكون وجهة نظرهم إلى الدنيا وحياتها إلا التي كانت عند أهل أهل الغرب . ولا شك أنه لم يجهر بالكفر بالله واليوم الآخر إلا قليل منهم . ولكن قل لي بالله كم قد بقي من الذين تأثروا بهذه الثقافة واغترفوا منها ليست عنده عقلية مادية محضة وليست نظريته للحياة مستغنية عن الحياة الآخرة وحسابها وهو ينظر إلى الحقائق المغيبة عن الروية والحس بشيء من الوثوق والطمأنينة ويقيم وزناً للقيم المعنوية فوق القيم المادية ، ولا يحسب الدنيا مضماراً للصراع الطاحن بين أغراض الناس البهيمية ؟.

أما نتيجة هذا التجاوب الانفعالي في الأخلاق فكانت أسوأ منها في باب الدين . فقد كانت جذور أخلاقنا قد تزعزعت من قبل في عصر انحطاطنا وكان أمراؤنا أرباب الثروة والمال عندنا منغمسين في ترفهم وبذخهم ، وكان رجال طبقتنا الوسطى قد أصبحوا عبيد الدينار والدرهم يخدمون من يستأجرهم ويذودون عن حوض من ينفق عليهم ، وما كان بقي فيهم شيء ثابت يسمى بالوفاء للعهود والاخلاص للمباديء ، ثم زادت الطين بلة فلسفة الغرب الخلقية هذه فبدأ يتولد فينا من الأخلاق والطباع ما كان مشتملا على كل ما في الطباع الغربية من الجوانب السيئة ، خالياً من معظم حسناتها . في باب النفعية وطلب اللذة وعدم

التقيد بالمبدأ نجد الطباع المتفرنجة عندنا على نحو ما عليه طباع أهل الغرب أنفسهم ، مع الفرق بأن لهم غاية في الحياة يكافحون ويعانون الشدائد في سبيلها ، وأما الذين يقتفون أثرهم في مجتمعنا ، فلا غاية لهم ولا مبدأ في الحياة أصلاً . وإن أولئك لا تخلوا حياتهم من نوع من أنواع الولاء لغاية والاخلاص لها لا يمكن أن يساوموا عليه وأما الذين عندنا على غرارهم ، فكل شيء في الحياة عندهم أياً ما كانت قيمته سلعة تباع وتشترى في سوق المطامع والشهوات . وإن أولئك عندهم طائفة من المساوىء الخلقية لا يعاملون بها إلا الشعوب الأجنبية ويعدون من الاثم العظيم أن يقترفوها بازاء أفراد الأمة نفسها . وأما تلاميذهم عندنا ، فلا يرون بأساً بأنفسهم إذا تسلحوا بازاء أبناء أمتهم باسلحة الكذب والمكر والخديعة ونقض العهد والاثرة والمؤامرة والتخويف والاطماع . وانه لو أتى أحد بمثل هذه الأخلاق في أمريكا أو بريطانية ، لتنغصت عليه الحياة . ولكن تنشأ وتزدهر عندنا جماعات كبيرة على أساس هذه الأخلاق ويرى في من يأتيها ويثبت مهارته فيها لمن رجالنا أنه أجدر من غيره بالزعامة القومية .

والذين اختاروا طريق هذا التجاوب الانفعالي من رجالنا ، هم الذين قبلوا وأشاعوا ـ ولا يزالون يقبلون ويشيعون ـ فينا ما ذكرت لكم آنفاً من تأثيرات السلطة الغربية في الاجتماع والاقتصاد والقانون . غير أن الذي يدعو إلى العجب أكثر من

كل شيء هو تجاوب هؤلاء القوم لما أقام الانكليز في بلادنا من نظام سياسي جديد ، فهم معجبون مزهوون بمعرفتهم السياسية ، ولكن الحق أنهم قد أخفقوا في هذا الباب إخفاقاً لم يخفقوا مثله في شيء آخر ، لان نظريات اللادينية والقومية والديمقراطية التي أسس عليها بناء النظام السياسي في الهند ، والتي ما زال يرتقي عليها هذا النظام بعد النصف الآخر من القرن التاسع عشر ، إذا كان الهنادك قد قبلوها وآمنوا بها ، فانما كان ذلك أمراً طبيعاً ، لأن كل جزء منها كان نافعاً لهم ولكن المسلمين الذين كان كل جزء فيها مضراً بهم مضعفاً لكيانهم ، يشهد عدم مقاومتهم له وامتناعهم عن رفع عقيرتهم خلافة بأن رجالهم المثقفين بالثقافة الجديدة لم يفهموا السياسة ولم يدركوا مغزاها مهما بالغوا في دراستها . كانوا معجبين بالغرب إعجاباً جعلهم يتلقون بالقبول كما ما كان يأتيهم منه كأنه وحي من السماء ، وما كانوا يتجرئون على انتقاده . فبهذه العقلية المهزومة (Def-ated) درسوا السياسة وظلوا يؤمنون بنظريات الغرب كلها إيمانهم بالغيب . وما كان فيهم شيء من الذكاء يحملهم على اختيار أسس هذا النظام السياسي الجديد ، ولا شيء من الجرأة يبعثهم على أن يتحدوا هذه الأسس من الوجهة العلمية ويقولوا لسادتهم إن مبادئكم هذه لا يمكن أن تتمشى في هذه البلاد . ولعمر الحق أنهم كانوا خسروا نصف الحرب يوم آمنوا بمبادىء اللادينية والقومية والديمقراطية وسلموا بها تسليما . فما نجحت بعد ذلك سياستهم القائمة على الحيلولة دون سير الرقي

السياسي وانتقال مقاليد الحكم إلى أيدي أهل البلاد . ولا أفلحت خطتهم المبنية على أن يحصل المسلمون في هذا النظام السياسي الخاطيء على طائفة من « التحفظات » تجعلهم في مأمن من آثاره المبيدة . أخيراً لما نضج هذا النظام السياسي وبلغ أشده أخيراً ، ما وجدنا لأنفسنا بداً من الاقتناع بأن يعيش بعضنا عيشة الأموات ويتخلص البعض الآخر من مخالبه ، ولكن لم يكن كل ذلك ليبصر زعمائنا السياسيين إلى الآن بما في أسس النظام السياسي الذي جعلنا على شفا حفرة من الهلاك من النقائص والمفاسد . فلا يزالون إلى يومهم هذا عاضين بالنواجذ على هذا النظام وهو قائم على نفس الأسس والقواعد التي تركه عليها الانكليز ، ولا يكادون يدركون أي حاجة إلى تغييره . فمن ذا الذي يقول الآن ، إلا من أصيب في عقله ، بأن دراسة السياسة وتجاربها قد أنشأت في هؤلاء القوم شيئاً من البصيرة السياسية .

ومما لا مجال فيه للريب أن هذا التجاوب الانفعالي لم يكن كله ضرراً فحسب ، بل كان فيه بعض جوانب النفع أيضاً . فقد انقشع بذلك سحاب الجمود السابق وعرفنا به ما جاء به العصر الجديد من مظاهر الرقي والاختراع . وكذلك اتسعت آفاق معرفتنا وأصبحنا في مأمن من النتائج السيئة التي قد تكون أصابتنا لو انفرد غير المسلمين بتلقي الثقافة الجديدة والنفوذ في ادارة الحكومة وتسيير شؤونها . وكذلك تدرب بفضله كثير من رجالنا على تسيير مختلف شعب الحكومة ومعالجتها .

فلست ممن ينكر شيئاً من هذه المنافع ولكن الواقع في الوقت نفسه انه قد تغير بهذا التجاوب الانفعالي تصورنا للدين والاخلاق وفلسفتنا للحياة وتبدلت قيمنا وتزعزعت أسس طباعنا الفردية والاجتماعية واننا اذا اخرجنا من التقليد الاعمى لاسلافنا ، فقد منينا بمثله لغيرنا من الضالين المضلين ، مما أضر بنا ضرراً فادحاً وأهلكنا من الوجهة الدينية والدنيوية معاً.

التجاوب الجمودي : وكان تجاوب طائفة أخرى من المسلمين مع الحضارة الغالبة على غير ما كان عليه عند الطائفة الاولى . فان كانت الطائفة قد انجرفت في تيار الحضارة الجديدة ، فقد كانت الطائفة الاخرى صخرة من الجمود في وجهه . فقد سعت هذه الطائفة سعيها للمحافظة على ما كان اهل القرن الثامن عشر تركوه وورثه عنهم اهل القرن التاسع عشر من اوضاع في العلم والدين والاخلاق والاجتماع والتقاليد وأرادوا أن يستبقوا كل شيء منها بكل ما يحتوي عليه من أجزاء صالحة وغير صالحة ، وألا يقبلوا أي تأثير للحضارة الجديدة ، وألا يصرفوا وقتاً في فهمها والوقوف على حقيقتها . ولا يزال رجال هذه الطائفة الاخيرة حتى اليوم من المحافظة على القديم والضن بآثاره العتيقة على ما كانوا عليه يوم ضربتهم الحضارة الغربية بضربتها الاولى من غير ان يأتوا بتعديل او يعيدوا النظر في سلوكهم . ولم يصرفوا لحظة من اوقاتهم بجد واهتمام في تحليل ما ورثوه عن الاقدمين ومعرفة ما يحسن الابقاء عليه وما يحتاج الى التغيير وكذلك ما تفكروا اصلا في معرفة ما

يحسن أخذه أو ينبغي رفضه مما جاءت به الحضارة الغربية ، وما سعوا سعياً معقولاً ليعلموا ما كان في نظامهم القديم للفكروالعمل من المساوىء والاسقام التي فتت في عضدهم وأوجبت هزيمتهم ، وما عند الأمة الاجنبية التي جاءتهم من وراء البحار من القوة العلمية التي مهدت لها السبيل وسببت لها الاستيلاء على بلادهم ، فبدل ان يفكروا قليلاً في مثل هذه الامور المهمة ويهتموا بها على الوجه الصحيح ، صرفوا ، ولا يزالون يصرفون الى اليوم مع الأسف جلّ همهم ومعظم قواهم في المحافظة على الاوضاع القديمة . فلا يزال نظامهم ومنهاجهم للتعلم على ما كان عليه في اوائل القرن التاسع عشر ، ومادب ولا أدنى دبيب من التغيير في مشاغلهم ومسائلهم ووجهات نظرهم ومناهج عملهم وميزات أوساطهم بكل ما كان فيها من السيئات أو الحسنات .

واني معترف بما كان ولا يزال في هذا التجاوب الجمودي من جوانب مهمة للنفع والافادة ، وفي القلب له مكانة يستحقها . فالحق انه ما بقي عندنا من علم القرآن والسنة والفقه إلا بفضله . ومن حسناته التي لها قيمتها ان كان فينا رجال احتفظوا بما تركه اسلافنا من تراث في الدين والاخلاق وظلوا ينقلونه الى الاجيال المتعاقبة . ومن باب الخدمات الجليلة ان حافظت طائفة على ما كان لحضارتنا من الخصائص وظلت مستمسكة بها حسب طاقتها في الاحوال المعارضة القاسية .

وكذلك أعترف ان الذين بدأوا هذا التجاوب الجمودي في اول الامر ، كانوا معذورين الى حد عظيم في سلوكهم ، لأن

قصارى ما كان في مكنتهم عندما صدمهم سيل الحضارة الجديدة بصدمته القاسية ان يحافظوا على اكثر ما يقدرون المحافظة عليه من التراث القديم . وما أعذارهم في هذا الباب بأقل وزناً من أعذار الطائفة الاولى . فكما نعذر رجال الطائفة الاولى بأنهم ما كانوا ليتفكروا عند أول ما صدمهم سيل النفوذ الاجنبي إلا بأن يختاروا الطريق الذي اختاروه إنقاذاً لابناء امتهم من الدمار الكامل واستحالتهم الى منبوذين ، كذلك من حق الزعماء الأُول من هذه الطائفة الثانية أنهم صرفوا بالهم وأعملوا فكرهم في المحافظة على مشخصاتهم الدينية والاجتماعية . إلا ان هذه المعاذير والرخص مما لا يسمن ولا يغني من جوع في قانون الطبيعة ، ولا بد لكل عمل ان يصيب الانسان بضرره ان كان متضمناً في نفسه سبباً من اسبابه ولو بأي نية خالصة يكون قد قام به ، ثم لا بد من الاعتراف بضرره في واقع الامر .

فالمضرة الأولى التي اصابتنا من جراء هذا التجاوب الجمودي أن الجهود التي بذلت للمحافظة على الاوضاع القديمة ، احتفظت مع الدين وما يستحق القدر من الامور المتعلقة به ، بجميع النقائص والمساوىء التي كانت موجودة في تصوراتنا الدينية في عصر الانحطاط . فها نحن أولاء قد ورثنا اليوم هذا التراث الممزوج بكل ما فيه من حسنات وسيئات ، وهو العقبة الكؤود في سبيل الانقلاب الاسلامي الصحيح شأن عقلية طبقتنا الجديدة ممن قد غرهم الغرب وبهر ابصارهم ببريق حضارته .

والمضرة الثانية التي أصابتنا على يد هذا التجاوب الجمودي أنه

ما حوفظ به على الجوهر الحقيقي لديننا وأخلاقنا وحضارتنا على الوجه المرضي ، بل لم يزل هذا الجوهر ينحط يوماً بعد يوم . ومن المعلوم أنه لا يقوم ويثبت في وجه التيار إلا التيار ولا قبل بصده للصخرة الصماء . فما كانت في بلادنا قوة تقيم في وجه الحضارة الغربية تياراً من الحضارة الاسلامية ، وانما اقتنع رجالنا بالمحافظة على القديم ، وكأن هذا القديم مشتملاً على المصالح التي تستحق أن يحافظ عليها ولا يرجى بدونها أن يبقى عزيز الجانب بازاء حضارة أجنبية معادية . ومن أجل ذلك عندما ننظر في تاريخ بلادنا للستين أو السبعين سنة الماضية ، نشاهد الحضارة الاسلامية تتدرج في نكوص مستمر دون تقدم أو ارتقاء ، وما زالت تضمحل وتنكمش على طول الشهور والسنين ، وما انفكت الحضارة الغربية بازائها تنمو صعداً وتتقدم بخطوات واسعة ، فما طلع علينا يوم إلا وكانت الحضارة الغربية وضلالاتها الفكرية وأقذارها الخلقية وغواياتها العملية قد استولت فيه على رقعة جديدة من ميادين حياتنا ، وكان ديننا وأخلاقنا وحضارتنا قد باءت فيه بفشل جديد ، ولم يتمكن أصحابنا المحافظون على الطراز القديم من القيام في وجه هذا السيل الجارف أصلا .

والمضرة الثالثة لذلك أن المزيج ـ من الاسلام والتقاليد غير الاسلامية ـ الذي كانت تحافظ عليه طائفتنا الدينية ، لم يبق فيه من الوجهتين الفكرية والعلمية الا نزر قليل مما يجذب اليه أهل الثراء وأصحاب الروية ، وما زالت رغبتهم فيه وانجذابهم اليه

يقل يوماً فيوماً ، فكانت في جانب ، الحضارة المعادية تتقدم بادواتها الآخذة بالالباب المسخرة للأذهان الساحرة للعيون . وكان بالجانب الآخر ، الاسلام يمثل بمباحث ومسائل ومشاعل ومظاهر لم تكن لتقنع الاذهان والعقول وتؤثر في القلوب وتعجب الانظار فجعل كل ذلك من كان يملك الوسائل المادية والمواهب العقلية والفكرية يفقدون ما بقي لهم من الشغف بالدين وينجذبون إلى الحضارة الغربية ، حتى أصبح أمر الدين والمحافظة على تراثه مختصاً بمن كانوا من الطبقة السفلى من حيث منزلتهم المادية والعلمية والاجتماعية . وما اقتصر ضرر ذلك على أن ظلت جبهة الدين تضعف وتضمحل وجبهة الحضارة الغربية تتقوى وتستحكم ، بل لم يزل مقياس تمثيل الاسلام ينحط يوماً فيوماً من حيث العلم والعقل واللغة والاخلاق ، إلى أن أصبح من العسير المحافظة على كرامة الدين والتدين .

وآخر مضرة وأفدحها أصابتنا من هذه الخطة الجمودية أن تنحى أهل الدين عن قيادة المسلمين وزعامتهم . وأصبح إرشاد المسلمين وزعامتهم في جميع شؤونهم من التعليم والاجتماع والاقتصاد والسياسة ، من وظيفة الذين لا يعرفون الدين ولا يشعرون بحاجة إلى استرشاده في ناحية من نواحي حياتهم ، وهم مثقفون بثقافة الغرب : تعلموا على منهاجه وتشكلت حياتهم وفقاً لمقتضيات نظام الغرب الاقتصادي وانصاغت حياتهم الاجتماعية في بوتقة الغرب وقامت أخلاقهم على القيم والمبادىء الغربية ، وأخذوا القانون والشريعة من كليات

الغرب الحقوقية وعالجوها طول حياتهم . وكذلك أخذوا مبادىء السياسة وطرقها ومداوراتها كلها عن الغرب ، فكل ما تلقوه من درس وارشادٍ من هذا الينبوع - ينبوع الضلالة والفساد - ساروا عليه هم أنفسهم وجعلوا الامة تسير عليه واقتفت الامة أثرهم بكل ثقة وطمأنينة . أما أهل الدين فلا ناقة لهم بهذا الشأن ولا جمل ، وأصبح من أمرهم ان يقبعوا في زواياهم ويشتغلوا بالدرس والتدريس والذكر والتسبيح أو يرفعوا أيديهم يدعون الله ويستنصرونه لمن بيده زمام القيادة القومية ، وإن أرادوا ان يتدخلوا في معترك السياسة ، فلا سبيل لهم إلى ذلك إلا بأن يتعلقوا بأهداب أحد الزعماء السياسيين ويتبعوا خطواتهم ويحذو حذوهم . وسواء انضموا الى المؤتمر الهندي الوطني او العصبة المسلمة ، كانوا من الاتباع ، ولم يكن لهم ادنى نصيب في رسم أي خطة من الخطط ، وما استطاعوا أن يقوموا في وجه أي ضلالة صغيرة أو كبيرة او ينكروها . وغاية ما كان يراجعون فيه ان يباركوا كل خطة يرسمها الزعماء المستغنون عن الدين او المعادون له ، ويعملوا على أقناع المسلمين بصحتها وموافقتها لما جاء في القرآن والسنة او بعدم كونها خطراً على دينهم على الاقل . ولم يقتصر هذا الداء عند هذا الحد ، بل آل الامر إلى أنه قد بورك في مبدأ اللادينية (Secularism) من قبل كثير من معاهدنا ومؤسساتنا الدينية « المقدسة » ولكن لا تسأل ، على كل ذلك ، عن شدة ارهاف شعورهم الديني في شأن الجماهير الذين لا يملكون أي سلطة ولا نفوذ ، فيكاد

يكفي في نظرهم لينسبوهم إلى الفسق ومخالفة الدين ان يأخذ أحدهم من لحيته ، ويعدونهم هامدين للدين إذا خالفوهم شيئاً ما في بعض المسائل الجزئية غير المنصوص عليها في الكتاب والسنة . وأما الذين استبدوا بالزعامة وسارت الامة خلفهم وهتفت بأسمائهم او نالوا شيئاً من القوة السياسية ، فيعدونهم مستحقين لكل رخصة في الدين ولو تزعزع على أيديهم بناء الدين من أساسه .

ماذا نريد

سادتي ! قد استعرضت لكم تاريخ بلادنا الماضي وما عليه أوضاعنا الحاضرة ، وليس غرضي من كل ذلك ان اطعن في احد ، وإنما أردت بذلك ان تعرفوا الحالة الحاضرة وما تستند اليه من الاسباب والعلل التاريخية ، ليسهل عليكم ان تحيطوا علماً ببرنامجنا العملي الذي وضعناه واخترناه مستمدين التوفيق من الله ومتوكلين عليه وحده لاصلاح « باكستان » في مثل هذه الاحوال وجعلها رافعة بيدها لواء النشأة الاسلامية الجديدة في العالم كله .

وقد عرفتم من خطبتي الافتتاحية ما تتسع له دائرة الفساد وتمتد اليه جذوره في كل شعبة من شعب حياتنا القومية ، وكذلك عرفتم من خطبتي هذه ما هي الاسباب والعلل التي تغذت منها كل مفسدة من مفاسدنا حتى نالت ما نالت من القوة والشدة . وكذلك علمتم أن لكل مفسدة من هذه المفاسد أصلا متأصل في تاريخنا وتقاليدنا ونظامنا للثقافة والمدنية والسياسية ، وأن مفاسد الشعب المختلفة متساندة في ما بينها استناداً قوياً محكماً . فلا أرى بعد كل ذلك رجلاً قد أوتي

حظاً من العقل والبصيرة يمتنع عن التسليم بأن مشروعاً من مشاريع الاصلاح الجزئي لا يكاد يجدي شيئاً في هذا الشأن، وقصارى ما يمكنكم بانشاء المدارس الدينية وتلقين الناس الشهادتين والصلاة ووعظهم بالاقلاع عن الفسق والعصيان ومحاربة الفرق الضالة ان تحولوا بعض الحيلولة دون مصير الدين الى الهلاك، وتمسكوا بعنانه حتى ينسأ في عمره قليلاً، وتحظى الحياة الدينية العامة بأنفس قليلة أخرى. ولكن كيف يرجى، من مثل هذه التدابير، ان تعلو كلمة الله وتذل بازائها كلمات الجاهلية؟ وذلك ان الاسباب والعلل التي ما زالت الى اليوم تعمل على قهر كلمة الله وإعلاء كلمات الجاهلية، تبقى قائمة حية في هذه الحال. وكذلك إذا أردتم أن يبقى النظام الحاضر قائماً على أسسه وقواعده الحاضرة ثم تصلحوا مفسدة من المفاسد الموجودة اليوم في أخلاقكم او اجتماعكم او عشرتكم أو إدارتكم أو سياستكم، فان ذلك لن يتحقق بحيلة من الحيل أبداً، لأن كل شيء منها قد تولد من المفاسد الاساسية لنظام الحياة الحاضر ورضع بلبانها وتربى في حضنها، وكل مفسدة منها مستندة الى مفاسد كثيرة اخرى. فلا بد لازالة فساد شامل للحياة كلها من برنامج جامع يقوم بعمل الاصلاح من الجذر الى الفروع بغاية من الاتزان والتناسب. فماذا ينبغي ان يكون هذا البرنامج وما هو عندنا؟ هذا ما اريد الكلام عليه الآن، ولكن يحسن بي قبل الشروع في هذا الكلام ان أوجه اليكم سؤالاً مهماً هو «ماذا تريدون في حقيقة الأمر»؟ أو بكلمة

أصبح « من يريد منكم وماذا يريد » ؟

فالحق اننا بلغنا الآن مرحلة من مراحل تاريخنا قد اوضحت التجارب فيها أن هذا المزيج من الاسلام والجاهلية الذي أظل نظام حياتنا الى الآن ، لا يمكن ان تطول به الحياة . واذا طالت فلا بد أن يفضي بنا الى الهلاك الكامل في الدنيا والآخرة ، وقد أصبحنا لأجله في حالة لا نكاد نهتدي الى مخرج منها . اننا لا نكاد ننقطع الى الحياة الدنيا ونسعى للظفر بلذائذها ومنافعها على الوجه الشامل كما ظفرت بها بلاد امريكا وانكلترا وروسيا ، لأن العلاقة التي تربطنا بالايمان والاسلام لا تكاد تسمح لنا بأن نسلك هذا الطريق منطلقين غير مبالين بشيء . وكذلك لا نكاد نقصر جهودنا وقوانا في أعمال توصل الى نعيم الآخرة شأن الامة المسلمة الصادقة في إيمانها ، فان الجاهلية التي قد استولت على عقولنا وأخذت بمجامع ألبابنا ، لا تكاد تسمح لنا بذلك أبداً ، فهذا التذبذب الذي نحن فيه في هذه المرحلة من حياتنا يحول بيننا وبين أن نؤدي حق دنيانا أو آخرتنا . ولأجله لا يزال كل عمل من أعمالنا ، دينياً أو دنيوياً مضماراً للفكرتين المتضاربتين والاتجاهين المتخالفين . فتعمل كل فكرة على مخالفة الاخرى وإبطال عملها ولا تسمح لنا باداء حقها ومطالبها على الوجه الصحيح . فمن الواجب علينا ان نقضي باسرع ما يمكن على هذه الحالة من التذبذب ونتجرد إما لهذا او ذاك . ان كنا لا نريد الشر لأنفسنا .

ولكن لا يمكن تحقق هذا التجرد الا باحدى الوجهتين . فعلينا

ان ننظر من ذا الذي يختار هذه الوجهة أو تلك ؟ فالوجهة الأولى ان نختار الطريق نفسه الذي قد أرشد بلادنا اليه حكامنا السابقون وحضارتهم الغالبة ، ثم نربي أنفسنا على ثقافة مادية بحتة غير آبهين لله والآخرة والدين والثقافة الدينية والاخلاق الدينية ، حتى تكون بلادنا أيضاً مثل بلاد أمريكا أوروسية الا أن هذا الطريق مخالف للحق مدمر لكياننا على كونه خاطئاً . بل الذي أجزم به ان هذا الطريق لا يمكن تحققه في « باكستان » ابداً لأن حب الاسلام والتفاني في الولوع به لهما جذور متأصلة في قلوب اهل هذه البلاد ونفسياتهم وتقاليدهم ولا قبل باقتلاعها منا لقوة من القوى الانسانية . غير ان الذين يريدون سلوك هذا الطريق ، لا احب ان اخاطبهم بهذه الكلمة ، بل نريد ان نؤذنهم بالحرب بدل ان نعرض عليهم برنامجنا .

والوجهة الثانية ان نختار لحياتنا الفردية والقومية ذلك الطريق المستقيم الذي هدانا اليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وذلك ما نريده ونظن انه كذلك يريده ٩٩٩ من كل الف نسمه مسلمة من اهل هذه البلاد ، وهو الذي ينبغي أن يبتغيه من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، ولكن ينبغي أن يعلم علم اليقين كل من يحب هذا الطريق ان الظروف التي نجتازها اليوم وهي ضاربة علينا من كل جهة ، ليس من السهل اليسير ان نجعل فيها الاسلام الخالص هو فلسفة الحياة ونظامها الغالب الوحيد في باكستان .

لا بد لهذا الغرض أن نحلل مزيج الاسلام والأوضاع القديمة غير الاسلامية ، الذي قد أحكمته فينا تقاليد القرون العديدة

ثم نميز منه الاوضاع القديمة غير الاسلامية ونأخذ جوهر الاسلام الخالص الذي يثبت خلوصه ونقاؤه اذا عرضناه على مقياس الكتاب والسنة . انه لا يمكن ان يتحقق ذلك بدون ان نلقى المقاومة الشديدة من الذين لهم ولوع شديد بجزء من اجزاء هذه الاوضاع القديمة . .

وكذلك لا بد بهذا الصدد ان نميز ما حازه الغرب من الرقي الحقيقي في المدنية والعلوم عن ضلالاته في فلسفة الحياة ووجهة الفكر والنظر والاخلاق والاجتماع ، ثم نأخذ الاول ونستفيد به ونضرب الصفح عن الثاني ونطهر من ادناسه شؤون حياتنا كلها . ومن البين الذي لا غبار عليه انه لا يمكن ان يتحمله من قد جعلوا دينهم التفرنج الخالص او طبعة من طبعات الاسلام الفرنجية .

ويحتاج ذلك الى ان يكون عندنا عدد من الرجال الجامعين بين العقلية الاسلامية والكفاءات الانشائية والمالكين للطباع المحكمة والاخلاق الفاضلة والعزائم القوية ، ثم ليضطلعوا جميعاً بهذا العمل الجليل بطريق منظم .

ولا يخفى عليكم ما لهذا النوع من البشر من قلة شديدة في مجتمعنا ، ثم كيف يمكن ان نظفر منهم بسهولة برجال أولي قوة وجلد يتحملون الصدمات السياسية والاقتصادية ويثبتون لما يصوّب اليهم من سهام الفتاوى ويقاومون بغاية من الصبر والاناة الاكاذيب الملفقة والافتراءات الكاذبة التي تهاجمهم من كل جهة .

ومع كل ذلك لا بد ان تكون الحركة التي تقوم لاعلاء كلمة الاسلام وجعل نظامه نظاماً غالباً في الارض متدفقة تدفق السيل

كما جاءت الينا الحضارة الغربية كسيل جارف واستولت على كل شعبة من شعب حياتنا . فانه لا يمكن ان تُزَحزَح الحضارة الغربية عن مكانها وتنحى عن منصب الغلبة والهيمنة الذي تبوأته الا بهذا التدفق والهيمنة . كما لا يمكن ان نبدل النظام الحاضر للتعليم والقانون والاقتصاد والسياسة ونقيم مكانه نظاماً آخر على الأسس الاسلامية الخالصة .

فهذا ما نريد ونبذل الجهود في سبيله . لا نريد ان نحيي حضارة المسلمين وثقافتهم القومية القديمة . وانما نريد ان نحيي الاسلام ونقيم نظامه . ولا نخالف العلوم الحديثة وما أتت به من مخترعات ومستحدثات في مختلف شعب الحياة والكون . انما نحارب النظام الثقافي المدني الذي ولدته الفلسفة الغربية للحياة والاخلاق . ولا نريد ان نحشر الغوغاء ونجعل منهم كتلة صناعية كما يفعل المشعوذون السياسيون . بل ان نستخلص من جسد الامة جوهره ونلتقط اجزاءه الخالصة فنجعل من هذا وذاك جماعة متراصة تستعد لمحاربة الجامدين والجاحدين معاً في سبيل إعلاء كلمة الاسلام الحقيقي الذي جاء به الكتاب والسنة لنجعل منه النظامَ الغالب للحياة في هذه البلاد ، ولا نكتفي بأن نصبغ بصبغة الاسلام ناحيةً أو بعض نواح من الحياة ، بل نصر إصراراً شديداً على أن نجعل الاسلام هو المهيمن على الحياة الانسانية بحذافيرها مهيمناً على الطباع الفردية والعشرة البيتية ومسيطراً على العلوم والفنون والآداب ومعاهد التعليم والتربية ومستولياً على محاكم القانون وميادين السياسة ودواوين الحكومة وإدارتها . وإنتاج

الثروة وتوزيعها . فبسلطة الاسلام الشاملة المهيمنة هذه وحدها يمكن أن تتجرد «باكستان» للغاية المنشودة وتتمتع بالمنافع الروحية والخلقية والمادية التي هي نتيجة لازمة فطرية لاتباع ما أنزل الله وهدى رسوله الكريم ﷺ . وبها وحدها يمكن الرجاء ان تصبح هذه البلاد مركزاً للدعوة الى الخير في سائر البلاد المسلمة ، ومركزاً للهداية في الدنيا القاطبة .

فهذه هي غايتنا وأرى ان كل من أحاط بها معرفة ، لا يلقى صعوبة في إدراك برنامجنا العملي ولهذا البرنامج أربعة أجزاء أريد ان أشرحها لكم كلاً على حدة :

١ ـ **الجزء الاول** هو تطهير الافكار وتعهدها بالغرس والتنمية ونحن باذلون منذ أعوام جهوداً لنجلي للناس ، في جانب ، صراط الاسلام الصحيح الحقيقي بعد أن نزيح عن وجهه كل ما قد تغشاه من حجب الجمود على القديم . وان ننتقد بالجانب الآخر على الغرب علومه وفنونه ونظامه للثقافة والمدنية ونبين للناس ما فيها من الفساد الذي يحسن تركه ومن الصحيح الذي يليق أخذه ؛ وان نوضح للملأ بالجانب الثالث كيف تطبق مبادىء الاسلام على المسائل والشؤون الحاضرة حتى يقوم في الارض نظام صالح للمدنية والاجتماع وعلى أي صورة تكون في هذا النظام كل شعبة من شعب الحياة . فهكذا نحن باذلون الجهود في إحداث الانقلاب في الافكار وتغيير مجرى الحياة بتبديلها وتزويد العقول بالغذاء الفكري للنهضة الجديدة . فنتائج ما بذلنا الى الآن من الجهود في هذا السبيل . متمثلة أمام أنظاركم في صورة

منشوراتنا ومحاضراتنا . ومن السهل على كل من ينظر فيها ان يعلم الى أي جهة نحن سائرون ونريد ان نسير اليها بالامة ايضاً .

٢ ـ **والجزء الثاني** : هو استخلاص الافراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وترتيبهم . فنحن باحثون في هذه المدن والقرى عن الافراد ـ رجالاً ونساءً ـ الذين هم منزهون عن السيئات القديمة والجديدة أو يظهرون استعدادهم الآن لينزهوا أنفسهم عن تلك السيئات . والذين يحبون الاصلاح ويستعدون للقيام بكل تضحية بأموالهم وأوقاتهم وجهودهم في سبيل الحق . وسواء أكان هؤلاء الافراد من المثقفين بالثقافة الجديدة أو المتخرجين من المعاهد الدينية القديمة . وكانوا من العامة اوالخاصة . وكانوا من الأغنياء أو الفقراء أو الطبقة المتوسطة . فحيثما كان مثل هؤلاء الافراد . نريد ان نخرجهم من مجاهل الدعة والعافية إلى ميادين العمل والسعي فان قبلوا غايتنا ومنهاج عملنا ونظام جماعتنا ، جعلناهم من أعضاء جماعتنا . وان أرادوا الاكتفاء بتأييدنا والموافقة على منهاجنا وغايتنا دون الاقدام على تحمل أعباء العضوية وتحقيق شروطها ، دعوناهم إلى الانضمام الى حلقة الانصار لجماعتنا . ومقصودنا من كل ذلك أن نستخلص من أمتنا ونجمع على رصيف واحد كل من نجد فيها من الافراد الصالحين الذين لا يكادون يقومون الآن بشيء نافع في خدمة الاسلام إما لتفرقهم وانتشارهم أو لبذلهم جهودهم في الاصلاح الجزئي ، فنريد ان نجمعهم جميعاً ثم نشغلهم بسعي منظم للاصلاح والبناء طبقاً لبرنامج حكيم موضوع لهذا الغرض .

ولا نتبلغ بهذا التنظيم فحسب ، بل الذين ننظمهم في سلك واحد بهذا الطريق ، نعنى بتربيتهم الفكرية والخلقية حتى تكون فكرتهم أكثر وضوحاً وطباعهم اكثر نزاهة وقوة وأجدر بالثقة والاعتماد . ولا يخفى علينا منذ أول أمرنا أنه من المستحيل ان يقوم النظام الاسلامي بمجرد رسم الخطط على القرطاس والدعاوى الفارغة ، بل الذي يتوقف عليه قيامه ونفاذه هو : هل يستند هذا النظام الى مواهب فكرية إنشائية وطباع فردية صالحة أم لا ؟ فان الخلل الذي يحدث في البناء لما عسى ان يكون قد بقي في الخطط المرسومة من نقص ، قد يسده العلم والتجربة بحول الله وتوفيقه ، لكن انعدام الكفاءة والصلاح لا يمكن أن ينهض بأي بناءٍ ، وان تمكن من ذلك ، فلا يمكن ان يحتمله طويلاً .

٣ ـ والجزء الثالث هو «السعي في الأصلاح الاجتماعي» وهو يشمل إصلاح كل طبقة في المجتمع حسب أحوالها ، وتتسع دائرته على قدر ما تتوافر وسائلنا . فنقسم أعضاءنا والعاملين من أنصارنا الى مختلف شعب العمل على حسب كفاءاتهم ومواهبهم ونوسد إلى كل منهم من العمل ما يلائم فطرته . فمنهم من يعمل في سكان المدن ومنهم من يعمل في أهل القرى ، ومنهم من يعنى ، بشؤون الفلاحين ومنهم من يهتم بأحوال العمال والأجراء ومنهم من يقوم بالدعوة في الطبقة المتوسطة ومنهم من يقوم بها في الطبقة العليا . ومنهم من يسعى لاصلاح الموظفين الرسميين ومنهم من يعمل على إصلاح التجار والصناع . ومنهم من يبذل جهده في المعاهد الدينية القديمة ومنهم من يسعى في الكليات الجديدة .

ومنهم من يشتغل بهدم معاقل الجمود ومنهم من يشتغل بصد تيار الكفر والالحاد والفسق . ومنهم من يعمل في ميدان الشعر والأدب ومنهم من يعمل في ميدان العلم والبحث والتحقيق . فهؤلاء جميعاً وان كانوا قائمين باعمالهم في دوائرهم الخاصة ، لكن قد وضعوا أمام أعينهم مقصداً وحيداً ومشروعاً بعينه يريدون ويجتهدون ليوجهوا اليه جميع طبقات الامة . فغايتهم المحددة التي يرمون اليها جميعاً أن يقضى على الفوضى الفكرية والعملية والخلقية التي قد شملت الامة لأجل الميول الجمودية القديمة والاتجاهات الانفعالية الجديدة ، وان يحدثوا في أفراد الامة جميعاً ـ من العامة إلى الخاصة ـ الفكرة الاسلامية الصحيحة والسيرة الاسلامية الرشيدة والحياة العملية الخالصة التي ينبغي أن يكون عليها كل مؤمن بالله ورسوله .

وإنهم لا يقومون بكل ذلك بمجرد الوعظ والارشاد ووسائل النشر والمحادثات والمحاورات الشخصية فحسب ، بل قد رسموا للعمل في مختلف النواحي والجهات برامج إنشائية مرتبة ولا يزالون متقدمين إلى غايتهم ، موفقين بنعمة من الله وفضل . فحيثما ينجح رجالنا العاملون في دعوتهم ويجدون رجالاً يوافقونهم في الدعوة ، يؤلفون منهم دائرة يسمونها دائرة المتفقين ، ثم يعملون بمساعدتهم على تحقيق برنامج أذكر لكم بعض أجزائه .

« إصلاح حال المساجد وتعريف عامة الأهالي بتعاليم الاسلام الأساسية والاهتمام بتعليم الاميين وإنشاء دار للمطالعة في الحي على الأقل والسعي الاجتماعي لانقاذ الناس من الظلم والعدوان

وبذل العناية بالنظافة وتهيئة الأسباب لحفظ الصحة بمساعدة عامة الاهالي وترتيب الفهارس لاسماء اليتامى والأيامى والعجزة والطلبة الفقراء والسعي لاعانتهم بطرق ممكنة وإقامة مدرسة ابتدائية أو ثانوية أو مدرسة للتعليم الديني تعنى مع تعليم الطلاب بتربيتهم الخلقية ، على حسب ما تسمح به الظروف وتتسع له الوسائل » .

وكذلك لا نكتفي بمجرد الوعظ والارشاد لانقاذ العمال من سموم الشيوعية ، بل نبذل جهودنا فعلاً لحل مسائلهم أيضاً . فقد بدأنا بتنظيم جديد للأجراء وسائر الطبقات العاملة ، ووضع أساس هذا التنظيم على الفكرة الاسلامية الخالصة . والمقصود من ورائه إقامة العدل لا تأميم وسائل الانتاج ، ومبدؤه السعي للحصول على الحقوق المشروعة المعقولة لا إحداث المجادلات والمشاكسات بين مختلف الطبقات . ومنهاج عمله خلقي موافق للقانون لا منهاج الهدم والتخريب . والذين ينخرطون في سلك هذا التنظيم ، لا ينظرون إلىحقوقهم فحسب ، بل ينظرون الى واجباتهم أيضاً . ومما يشترط عليهم أنهم سؤدون ما عليهم من الواجبات بكل أمانة وصدق . ثم لا تقتصر دائرة عملهم عند مصالح طبقتهم فحسب ، بل ان كل طبقة لها علاقة بهذا التنظيم ، تهتم مع المحافظة على حقوقها باصلاحها الديني والخلقي والاجتماعي أيضاً .

والمبدأ الأساسي لمنهاج الاصلاح الشامل هذا ، هو أن كل من بدأ بعمله في دائرة من الدوائر أو طبقة من الطبقات ، فليتقن عمله بطريق متصل منظم ولا يفتر عن سعيه فيها حتى ينتهي إلى

نتيجة معلومة . ولسنا ممن يلقون البذور في أرض الفضاء كالطائرات في جو السماء أو الرياح العواصف ، بل نريد أن نعمل كما يعمل الفلاح في رقعة معينة محدودة من الأرض ويغرس فيها البذرة ، ثم لا يستريح عن تعهد حالها من غرس البذرة الى حصد الزرع حتى تنتهي جهوده الى نتيجة معلومة . فبالطريقة الأولى توجد الغابات وبالثانية تزدهر الزروع المنسقة .

٤ ـ **والجزء الرابع** من أجزاء هذا البرنامج هو « **اصلاح الحكم والادارة** » . ذلك بأنه من عقيدتنا انه لا يمكن ان ينجح تدبير من التدابير في إصلاح مفاسد الحياة الحاضرة ما دامت لا تبذل المساعي لاصلاح نظام الحكم والادارة مع المساعي الاخرى للاصلاح ، فان الفساد الذي ينبث في الناس آثاره معتمداً على قوى التعليم والقانون والادارة وتوزيع الرزق ، لا يمكن ان يجدي شيئاً في درئه ما يبذل من المساعي للاصلاح والبناء بالاعتماد على وسائل الوعظ والتلقين والدعوة والارشاد فحسب . فان كنا نريد اليوم ان نصرف بنظام الحياة في بلادنا عن طريق الضلال والفساد و الفسق والعصيان ونسير به في طريق الاسلام المستقيم ، فلا مندوحة لنا من ان نبذل سعينا بطريق مباشر في ازاحة الفساد عن منصة النفوذ والسلطة وإحلال الصلاح مكانه ، والظاهر انه إذا كان زمام الأمر والسلطة بأيدي الصالحين المؤمنين ، فانهم يحدثون في أعوام قلائل من التغيرات الهامة في نظم التعليم والقانون والإدارة ما لا يمكن أن تأتي به الجهود غير السياسية في مدة قرن كامل .

أما كيف يتأتى هذا التغيير ، فليس له من سبيل في نظام ديمقراطي الا الخوض في معارك الانتخابات . وذلك أن نربي الرأي العام في البلاد ونغير مقياس الناس في انتخابهم لممثليهم ، ونصلح طرق الانتخاب ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ، ثم نسلم مقاليد الحكم والسلطة الى رجـال صالحين يحبون ان ينهضوا بنظام البلاد على أسس الاسلام الخالص . ومن حسن حظنا ان « قرار مبادىء الدستور » قد أزاح عن طريقنا جميع العقبات الدستورية التي كانت تحول الى الآن بيننا وبين اختيار هذا الطريق فبمجرد زوال هذه العقبات في سبيلنا ، بدأنا نشترك في معترك الانتخابات ولا يزال أمام أعيننا في هذا العمل نفس الغاية التي قد بينتها لكم آنفاً .

الكلمة الأخيرة :

سادتي الكرام ! قد بينت لكم في خطبتي الافتتاحية وفي هذه الخطبة ذلك المرض الذين نحن مصابون به . وكذلك شرحت لكم أسبابه وفصلت القول في طريق علاجه وعرفتكم على الغاية التي ننشدها ولأجلها نبذل هذه الجهود في علاجه . فعلى كل واحد منكم الآن أن يقضي في نفسه هل ينبغي له أن يشاركنا في العمل أن أو يقاومنا فيه أو يحايد الطريق ويمتغ النظر ؟ ولكن يجب عليه ــ مهما كان قضاؤه ــ أن يتفكـر ماذا يكون جوابه عند الله تعالى يوم القيامة . قد اخترنا لأنفسنا على بصيرة تامة غاية للحياة وطريقاً للعمل نجاهد لأجلهما في كل حال ؛ سواء أيشاركنا أحد أو يزاحمنا أو يحايد الطريـق .

وأما إذا كان في عملنا شيء من النقص وأراد أحد أن ينبهنا عليه ويوضحه لنا بالدليل والحجة ، فسيجدنا مستعدين كل الاستعداد لازالته عن أنفسنا وإصلاح أعمالنا متشكرين له إن شاء الله . ونحمد الله تعالى على أننا لسنا من الذين يزكون أنفسهم ولكن في الوقت نفسه إذا كان أحد يظن أنه سيصدنا عن المضي في سبيلنا باختلاق الاكاذيب وإصدار الفتاوى الملفقة واستخدام القوة السياسية . فإننا نريد أن نوضح له في هذا المقام جهاراً متوكلين على الله وحده أن مثل هذه الأعمال الشنيعة لن تفضح إلا إياه ولن تضرنا شيئاً إن شاء الله .

وفي الختام أدعو الله تعالى وأتضرع اليه أن يلهمنا الصبر والثبات ويشرح صدور عباده لما قلت في هاتين الخطبتين ويوفقهم للتعاون معنا في سبيله إن كان حقاً ، وينقذنا وإياهم من شره إن كان باطلاً .

وآخر دعوانا ان الحمدلله رب العالمين

فهرست